الباب الثالث

الانظمة السيميولوجية في السورة

الفصل الأول : الأنظمة غير اللغوية

الفصل الثانى : من الملامح الجمالية للنظام اللغوى

رأينا فيما سبق كثرة الموضوعات والأفكار التى استنبطت من السورة الكريمة ، وهى أفكار عميقة لم تخبر عنها اللغة فقط بل دلت عليها علاقات وسياقات مختلفة .

ومعنى هذا أن اللغة لا تستوعب دلالات كثيرة ، وتقف عند حدود لا تتجاوزها فى التعبير ، وتأخذ مكانها أنظمة تعبيرية غير لغوية لنقل دلالات مخصوصة لا تنقلها اللغة .

وكل الأنظمة المستخدمة فى التعبير عن المعانى بما فيها اللغة تشترك فى كونها رموزًا اصطلاحية لمعان متفق أو مصطلح عليها ، ويلزم للرموز والمعانى وجود نوع من العلاقات التى تربط بينهما . ولا قيمة لتلك الرموز إلا باصطلاح عليها وعلى دلالاتها .

ومن الطبيعى أن تتنوع الرموز والعلاقات والدلالات والاصطلاحات .

والرموز تختلف باختلاف وسائل الإدراك ، فيلزم من الوجهة النظرية على الأقل – وجود رموز تعتمد على الحواس الخمس ، فيكون فيها ما يعتمد على البصر ، وفيها ما يكون سمعيًا أو ذوقيًا ، وكذلك ما يعتمد على اللمس والشم . ولا تقف الرموز عند ما تدركه الحواس ، بل هناك علاقات مركبة تؤدى إلى التخيل ، كما تلعب السياقات دورًا غير قليل فى تحديد الدلالات .

ونذكر من الرموز أو العلامات القائمة على حاسة البصر إشارات المرور ، وإشعال النيران ، وإلقاء القش فى الأنهار عند بعض القبائل أو الشعوب التى تسكن حول الأنهار . ومنها دلالات الأزياء وهى تحدد المهن والرتب المختلفة ، كما يحدث فى زى رجال الجيش أو الشرطة ، وما يضعونه فوق أكتافهم أو على أذرعهم من قطع نحاسية على هيئة طائر أو سيف أو نجم أو غير ذلك . ويدخل فى ذلك أيضًا التصوير بالخطوط والألوان ، ونحت الحجارة والأخشاب والمعادن .

أما الرموز أو العلامات السمعية فهى أكثر استخدامًا لسرعتها وسهولة أدائها ، ومنها ما يقوم على الصوت الإنسانى كاللغة الصادرة عن أجهزة النطق ، أى المعتمدة على الصوت الصادر من الإنسان ، ومنها ما يصدر عن أدوات غير إنسانية كأصوات الطبول وتردد الأصوات داخل التجاويف الخشبية والنحاسية ، واهتزاز الأوتار المشدودة على تجاويف رنانة .

وهذه الأدوات تَنْتِجُ أصواتًا مخصوصة ذات دلالات متفق عليها ، ويصح لصوت النواقيس والصفارات والأبواق دلالات معهودة عند أصحابها ، ولدى من توجه إليهم .

ولا تقف الأصوات غير الإنسانية عند الأصوات الصادرة من الآلات ، بل تشمل أصوات الطبيعة ، كالبرق والرعد وعصف الرياح ، وحفيف الأشجار ، وأصوات الطيور والحيوانات . وهى كلها ذات دلالات فى آذان سامعيها .

وللحواس الأخرى كالشم واللمس والذوق – رموزها أو علاماتها الدالة على معانيها ، وهى وسائل معرفية ، لكنها تأتى فى أهميتها بعد الحواس العليا وهى السمع والبصر . ومعنى هذا أن المعارف والدلالات تحصل وتظهر بوسائل مختلفة ، واللغة إحدة من تلك الوسائل ، وهى جزء من أنظمة أعم وأشمل ، وهى أنظمة الإشارات أو العلامات لأن العلامات أو الإشارات لا تقتصر على السمعية الإنسانية التى تقوم عليها اللغة ، بل تتسع كما رأينا لتشمل الأصوات الصادرة عن الطبيعة والآلات ، كما تشمل العلامات التى تعتمد على الحواس الأخرى .

وقد أطلق على هذه الأنظمة من الرموز أو العلامات اسم : (السيميولوجيا somiology) وهو الاسم الذى اقترحه عالم اللغة فرديناند دى سوسيير الذى اشتقه من الكلمة اليونانية (semeion) وذلك كما جاء فى كتابه محاضرات فى علم اللغة[1]

وهذا النوع من الأنظمة الإشارية (السيميولوجيا) ينتفع كثيرًا بنتائج علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الأجناس وهى نتائج تؤدى دورًا هامًا فى تحديد العلامات أو الإشارات وتربط بينها وما تؤديه من دلالات متنوعة ، وهى دلالات قد تختلف من مجتمع إلى آخر على حسب ما تقتضيه المعتقدات والطقوس والعادات ، وقد عوّل فرديناند دى سوسيير على الأثر النفسى والاجتماعى فى توجيه الدلالات التى تحملها العلامات أو الإشارات ، إلى درجة أنه توقع أن يصبح علم (السيميولوجيا) جزءًا من علم النفس العام .

ومع الأهمية الكبيرة المتعلقة بعلم النفس أو علم الاجتماع فإننا نرى عوامل أخرى ذات قيمة فى توجيه الذهن إلى دلالات الرموز أو العلامات ، ومنها القرائن المحيطة بها والسياقات الموجهة لها ، وهى وسائل معينة على الفهم والإفهام ، وقد تنبَّه أسلافنا من البلاغيين إلى مثل هذه القرائن .

---

(١) De Saussure, Ferdinand:
cours de linguistique generale p.p. 32 - 35.

وقد يظن أن القرائن والسياقات قاصرة على اللغة فقط ، لكننا نراها أكثر اتساعًا من ذلك فهى تمتد إلى الإشارات المختلفة ، والمواقف المتغيرة . وإذا كانت القرائن اللفظية عند البلاغيين أساسًا فى تحديد الغرض البلاغى من الأساليب فإن القرائن الحالية التى نبهوا عليها تمتد إلى خارج الدائرة اللغوية ، فهى أكثر اتساعًا وتنوعا .

فالقرينة الحالية تؤدى دورًا وظيفيًا فى توجيه المعنى وتحديد الأساليب ، فتمنع من إرادة المعنى الأصلى فى ضروب المجاز مثلاً .

وهى فوق تلك الوظيفة تؤدى دورًا أكبر فى توجيه الذهن إلى إدراك دلالات الإشارة أو العلامة .

كما تؤدى الطقوس والعادات وهى مسالك اجتماعية – وظائف هامة لتوجيه الذهن إلى تلك العلامات ، فاللون الأبيض له دلالته الخاصة عند الصينين ، وهى تختلف عند غيرهم من الشعوب الأخرى ، وكذلك الملابس الحمراء ، أو الرايات الحمراء تختلف دلالاتها من شعب إلى آخر .

وقد انتفعت الشعوب المتحضرة بالأنظمة السيميوجية ، وقد ظهر ذلك فى نظام الشفرة المستعملة فى الجيوش ، وفى مجالات عملية كثيرة ، وقد ساعد على انتشارها أجهزة الحاسب الآلى وغيرها مما يقدمه التقدم العلمى يومًا بعد يوم .

ويؤدى الموروث الثقافى والتاريخى دورًا وظيفيًا فى توجيه الذهن إلى دلالات الإشارة أو الرمز بصفة عامة ، فالنظر إلى الأهرامات لا يؤدى إلى معرفتها وقيمتها بغير الإحاطة بالتراث الروحى القديم عند المصريين القدماء . ومازال تمثال (أبو الهول) الضخم يثير كثيرًا من التساؤلات حول مغزاه الحقيقى ، لأن المعرفة التاريخية التراثية مازالت محدودة .

ويجب علينا عند تناول الأنظمة السيميولوجية بصفة عامة أن نفرق بين ما هو لغوى منها ، وما تصوره اللغة لنا ، لأننا نلجأ فى أحيان كثيرة إلى العنصر اللغوى لوصف تلك الأنظمة ، ونحن لا ننكر الظلال التى يتركها النظام اللغوى على غيره عند اللجوء إلى الوصف به ، لكن سنرى فى مواضع كثيرة أن اللغة عاجزة عن كشف دلالات الرموز والإشارات .

كما لا يعنى هذا أيضًا أن الإشارات أو العلامات لا توصف إلا بالنظام الصوتى اللغوى ، بل الأصل فيها أنها رموز أو علامات مستقلة وقائمة بذواتها ، ومخبرة عن دلالاتها .

ومن الجدير بالذكر أن الجاحظ قد تنبه إلى هذا فى القرن الثانى الهجرى ، وذلك عندما تحدث عن البيان ووسائله الخمسة ، وقد التفت بذكاء فذ إلى الفروق التى بين اللغة ووسيلة حفظ اللغة أو تسجيلها أى الخط ، كما وقف عند دلالات الإشارة وأنواعها وكذلك العقد باليد وغيرها من الإشارات الجسدية . لكن وقوفه عند الحال التى سماها (نُصْبه) يدخل بعمق فى تصور المحدثين عن الأنظمة السيميولوجية .

وقد قمنا بتفصيل ذلك وتناوله بالموازنة مع المحدثين – فى رسالتنا التى قدمناها إلى كلية الآداب – جامعة القاهرة لنيل درجة الماجستير[1] والجاحظ بحق أسبق من دى سوسيير فى تناوله لمفاهيم السيميولوجيا وإن لم يستخدم المصطلحات والأسماء المعاصرة لها .

وبعد هذا العرض الضرورى نجد أنفسنا ملزمين بالتحدث عن جانبين فى هذا الباب :

الأول هو الأنظمة السيميولوجية غير اللغوية .

والثانى عن النظام اللغوى .

وكلا الجانبين ميدانه السورة .

---

(١) انظر رسالة الماجستير التى قدمناها إلى كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٠ تحت عنوان (مفاهيم النقد والبلاغة عند الجاحظ فى البيان والتبين والحيوان) – فصل مفهوم البيان عند الجاحظ .

الفصل الأول

الأنظمة غير اللغوية

أشرنا فيما سبق إلى مفهوم تلك الأنظمة والصور التى يمكن أن تظهر فيها ، وهى علامات أو إشارات اتفق عليها فى مجتمع من المجتمعات على أنها تؤدى معانى مخصوصة ومتفق عليها ، وهى متنوعة بحسب الحواس التى تعتمد عليها ، ولا يلزم بطبيعة الحال استيفاء نماذج لتلك الأنظمة فى مقام واحد ، فهذا أمر نادر الوجود ، بل إن وجود بعضها فى مقام يكمل وجودها فى المقامات الأخرى .

ومما نؤكد عليه أن وجود مثل تلك الأنظمة فى النصوص لا يتحقق إلا باللغة ، وهنا تجب الحيطة التامة من الخلط بين النظام اللغوى والأنظمة السيميولوجية الأخرى ، ودور اللغة نحو تلك الأنظمة هو الوصف ، ومن البديهى أن تعقب مرحلة وصف النظام باللغة هى مرحلة الكشف عن ذلك النظام وعلاقاته النفسية والاجتماعية والتاريخية التى تحدد دلالته المقصودة . وهذا أمر مُحاط بصعوبات سببها الخلط بين النظام اللغوى والأنظمة الأخرى ، ومن الأفضل بطبيعة الحال أن توجد هذه الأنظمة مستقلة وقائمة بذاتها . لكننا أمام نَص لغوى رفيع هو ميدان دراستنا .

إن اللغة قد استطاعت أن تستوعب كثيرًا من المعانى العظيمة ، والدلالات السامية فى سورة طه وغيرها من سور القرآن ، لكن هناك من المعانى الكبيرة ، والأفكار العظيمة ، والصور الفريدة – ما لا تستطيع اللغة وحدها أن تكون وعاء له ، فترمز إليه بأصواتها ورموزها ثم تقف عند تلك الرموز ، ويلجأ المفسرون إلى التماس القرائن المختلفة التى توصلهم إلى دلالات الرموز اللغوية الغامضة .

وسنحاول أن نُبَيِنْ ذلك ببعض الأمثلة فى سورة طه .

١ – قوله تعالى ﴿طه﴾

وهى الآية الأولى من السورة ، وقد تعددت وجوه التفسير فيها ، ولم يؤكد المفسرون على وجه معين ، أو يرجحوه على الوجوه الأخرى ، وهذا يؤكد أن معانى القرآن أى كلام الله تعالى لا تحيط به لغة مهما اتسعت وتعددت وسائلها .

وقد جمع القرطبى أكثر من سبعة أوجه لتفسير هذه الآية الكريمة يمكن إيجازها فى قولهم :

بأنها من الأسرار ، وهو قول منسوب إلى الصديق رضى الله عنه .

وقيل أنها بمعنى (يا رجل) فى لغة بعض القبائل مثل عك وعكل وطيئ وهو قول منسوب لابن عباس رضى الله عنهما .

وقيل إنها وردت بالمعنى السابق (يا رجل) فى السريانية والنبطية والحبشية ، وهو قول منسوب إلى عكرمة وابن عباس .

وأورد القرطبى أنها اسم من أسماء الله ؛ وقسَم أقسم به ، وهو قول منقول عن ابن عباس .

وقيل إنها اسم من أسماء النبى ﷺ سماه الله به .

وقيل : إنها اختصار من كلام الله خص رسوله بعلمه .

وقيل : إنها حروف مقطعة ، يدل كل حرف منها على معنى ، واختلف فى تلك المعانى .

وقيل طه بمعنى طأ الأرض[1] .

وهكذا نرى أن المفسرين قد اجتهدوا فى تفسير الآية ، ولم يجزموا برأى ، ولم يرجحوا وجهًا على آخر ، وقد استندوا فى تفسيرهم إلى قرائن تعينهم على بيان قصدهم . ومازلنا حتى الآن نشعر بعجزنا عن إدراك دلالة محددة للآية . ومرجع ذلك العجز إلى وقوف اللغة عند حد معين ، فلم تقدم اللغة إلا صورة صوتية لكلمة مركبة من مقطعين مفتوحين متوسطين . وليس لدى المتكلمين بالعربية دلالة معهودة محددة لكل مقطع منهما .

ونستطيع أن نتصور هذه العلامات الصوتية عندما نوضحها فى ضوء النظام المقطعى syllabic system القائم على وحدات أصغر هى الصوت الصامت consonant والصوت الصائب vowel . ومن المعروف أن الصوامت هى الحروف الساكنة ، والصوائت هى الحركات القصيرة (الفتحة والضمة والكسرة) والحركات الطويلة وهى أحرف المد (الواو والألف والياء) ، والمقاطع من الصوامت والصوائت تتحدد على حسب طولها وقصرها أو فتحها وغلقها .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ٦ ص ٤٢٠٦ – ٤٢٠٧ .

وبناء على هذا نرى النظام المقطعى فى العربية لا يخرج عن مقاطع ثلاثة هى : القصير والمتوسط والطويل .

والمقطع القصير short syllable لا يكون فى العربية إلا مفتوحًا كالكاف والتاء فى (كَتَبَ) ، وهو يبدأ بصوت صامت consonant يليه صوت صائت vowel قصير ، فالمقطع القصير المفتوح يطابق الحرف المتحرك فى العربية ، ولا يوجد مقطع قصير مغلق أى يتكون من صامتين متتالين ، وقد يكون جزءًا من مقطع ، كما لا يوجد فى العربية مقطع يبدأ بصوت صائت سواء كانت حركته قصيرة أو طويلة .

أما المقطع المتوسط medium syllable فهو إما متوسط مغلق medium close syllable وهو يبدأ بصوت صامت تليه حركة فتحة أو ضمة أو كسرة ، وصوت صامت ويرمز إليه (C.V.C) ومثال ذلك :

لَمْ وهى مؤلفة حسب الصوامت والصوائت من c.v(a)c

قل وتتألف من .c.v(u)c

مِنْ وتتألف من .c.v.(i)c

وهذا المقطع قد يكون جزءًا من كلمة كما فى (ثَوبْ) وقد يكون كلمة مفردة كما رأينا .

أما النوع الثانى من المقاطع المتوسطة فهو المفتوح وهو ما يقابل المصطلح medium open syllable وهو يبدأ بصوت صامت يليه صوت صائت طويل ويرمز إليه بـ .C.V.V وهذا الصوت الصائت الطويل قد يكون ألفًا أو واو أو ياء كما فى :

لا c.V.V.(aa)

ذو c.v.v.(uu)

فى c.v.v.(ii)

ويلحظ أن هذا المقطع قد يكون جزءًا من كلمة مثل (قال) و (نور) و (سعيد) ، وقد يكون كلمة مستقلة كما رأينا .

أما المقطع الطويل long syllable فيكون طويلاً مغلقًا long closed syllable وهو يبدأ بصوت صامت يليه صوت صائت طويل وصوت صامت ويرمز إليه بـ .c.v.v.c كما فى حالة (نارْ) بالوقف أو (نورْ) أو (جيلْ) بالوقف أيضًا .

وقد يجيء مقطع طويل مغلق ينتهى بصوت صامت مشدد مثل (هامّ) و (جانّ) ويرمز له (c.v.v.c.c.)

ولا يوجد فى العربية مقطع طويل مفتوح أى ينتهى بصائت أى يتكون من (c.v.v.v.v.)

وقد توقفنا عند هذا الشرح حتى نتمكن من وصف إمكانية اللغة فى التعبير عن بعض المعانى العميقة .

١ – والآية الأولى من السورة (طه) تتألف من مقطعين متوسطين مفتوحين وذلك حسب ما صورته اللغة ، وما ورد من قراءات فيها ، ودلالة المقطعين لا تزيد ولا تتغير بالوصف المقطعى القائم على الصوامت والصوائت لهما ، فلقد رسمت اللغة صورة صوتية فقط ، ويمكن أن يقال فى شرح الصورة الصوتية لهما . إنها مقطع متوسط مفتوح مع مقطع متوسط مفتوح آخر ، أو صوت صامت وصوت صائت طويل مع صامت وصائت طويل آخر ، وهذه الأوصاف لا تتميز من حيث الدلالة عن تصويرنا للآية بالرمز الصوتى ، فلو قلنا فى (طه) برمز للمقطع الأول (طا) c.v.v(aa) والثانى (ها) c.v.v.(aa) – لَمَا أضاف الوصف الجديد لهما دلالة أو إيضاحًا .

لقد وقفت اللغة عند وصف (العلامة) فقط ، ولم تتمكن من الإحاطة بدلالتها ، لأن طاقتها قاصرة عن استيعاب كلام الله سبحانه ، واللغة أمام مثل هذه الآيات التى وردت فى افتتاحيات السور لا تزيد كثيرًا عن إشارات (مورس) (التلغرافية) ، وهى إشارات لا تخرج عن كونها أصواتًا مقطعة بين طويلة وقصيرة ، وعلى المتلقى أن يحول هذه الإشارات الصوتية إلى حروف وكلمات طبقًا للاصطلاح المتفق عليه .

لكن الأمر هنا أكثر صعوبة لأن المتلقى ليس لديه اتفاق أو اصطلاح معين عن المقاطع القرآنية ، وتبقى دلالتها بعيدة تشْعِر الإنسان بعجزه عن إدراكها لقصور وسائل الإدراك فيه ، كما تزِيدُ المؤمنين إيمانًا بأن كلام الله وعلمه لا يُدرك البشر منه إلا القدر اليسير .

ومن هنا لجأ المفسرون إلى البحث عن علاقات وقرائن تقربهم من الدلالات الحقيقية لهذه الآيات ، وهى جهود مشكورة لما تخبر عنه من اجتهاد .

ومواقف العلماء من المفسرين وغيرهم تؤكد أن قوله تعالى ﴿طه﴾ علامة خارجة عن طاقة اللغة ، وقد تأكد ذلك فى قولهم : إنها من الأسرار التى اختص الله بعلمها [١] . وفى قولهم أيضًا : إنها اختصار من كلام الله خص رسوله الكريم به[٢] .

أما قولهم أنها من أسماء الله فهو لم يرد فى أسمائه الحسنى التى وردت ، ولم يعتمد هذا القول على قرينة أو علاقة توضحه وتؤكده .

وأما القول بأنها حروف مقطعة لكل منها معنى فهو قول يعبر عن عدم اتفاقهم على دلالة موحدة لكل حرف ، وهو ينفي وجود الاصطلاح على دلالة العلامة السيميولوجية بصفة عامة ، واللغوية بخاصة .

فلقد أورد المفسرون معانى لا حصر لها لدلالة كل مقطع لا نجد مجالاً لها هنا . وكتب التفسير حافلة بها .

وهذه الآراء تمثل اعترافًا ضمنيًا بأن مقطعى الآية نظام صوتى يختلف عن النظام اللغوى .

ونجد فى الآراء الأخرى ما يؤكد ذلك بطريقة مختلفة ، فقد اعتمد المفسرون على قرائن وعلاقات وسياقات جعلت مسلكهم قريبًا مما يشترطه المشتغلون بالمعانى أو الدلالات ، ومعنى هذا أنهم يبحثون عن علاقات بين العلامة ، والدلالة وقد وقفوا عند مجموعة منها ومن ذلك :

قولهم بأن قوله تعالى ﴿طه﴾ تعنى يا رجل فى لغة (عكل) وقيل فى (عك) وذلك كما روى البيهقى عن ابن عباس[٣] . وقيل إنها بهذا المعنى فى السريانية والنبطية والحبشية وذلك كما يروى عكرمة وسعيد بن جبير[٤] . ومعنى وجودها فى تلك اللغات يشير إلى أنها سامية الأصل . لكن هذا الأمر غير مؤكد لأنها لم تعرف فى العبرية والعربية الفصيحة بهذه الدلالة .

وقد نقل المفسرون عن الطبرى ورود (طه) بمعنى يا رجل فى بيتين الأول للمهلهل هو :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٠٥ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٠٦ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٠٥ وانظر الكشاف جـ ٢ ص ٥٢٨ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢٠٦ وانظر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٤١ .

إن السفاهة طه من خلائقكم لا قدس الله أرواح الملاعين

والثانى لمتمم بن نويرد[١] .

دعوت بطه فى القتال فلم يجب فخفت عليه أن يكون موائلا

وورودها فى البيتين لا يخرج أيضًا عن كونها محصورة بهذه الدلالة فى لهجة بعض القبائل ، وبيت المهلهل يؤكد أن كلامه موجه إلى غير التغلبيين فهو هجاء قوم سفهاء . ومثله بيت متمم بن نويره الذى يخاطب به رجلاً من غير قومه ، ولم يفهم ولم يجب .

ويعنى هذا أن المفسرين لجأوا فى تفسير الآية إلى ربطها بالمجتمع ، فالنظر فى اللغات المنتسبة إلى لغة أم كالسامية يعنى اللجوء إلى الظواهر الاجتماعية ، فاللغة فى أصلها ظاهرة اجتماعية توجد بوجوده ، وتنعدم بانعدامه ، وقد بحثوا عن معنى الآية باعتبارها لفظة واحدة – فى تلك اللغات التى تنتسب إلى السامية الأم وهى لغات أو لهجات لبعض قبائل اليمن مثل (عك) و(عكل) و(طيئ) ، وقيل بوجودها فى الحبشية والسريانية والنبطية أيضًا .

ومع هذا المسلك الاجتماعى تبقى آية (طه) علامة أو إشارة سيميولوجية تحتاج إلى التوضيح بدلالة محددة .

أما قولهم بأن قوله تعالى ﴿طه﴾ أمر لرسوله بالتخفيف فهو يشير إلى عناية المفسرين بالقرائن المختلفة للوصول إلى الدلالة المقصودة ، فيورد الزمخشرى فى الكشاف عن الحسن رضى الله عنه ، وابن كثير عن الربيع بن أنس ، والقرطبى عن الكلبى أن تفسير (طه) أمر بالوطء ، فالنبى ﷺ كان يقوم فى تهجّده – على إحدى رجليه ، فأمره الله بأن يطأ الأرض بقدميه معًا ، وأن الأصل (طأ) فقلبت همزته هاء ، ثم بنى عليه الأمر ، والهاء للسكت[٢] .

وهو تفسير قريب ومقبول من وجهة نظرنا ، لأنه مرتبط بعلامات وقرائن ترجحه على غيره ، ونستطيع أن نحصر أهمها فيما يلى :

القرينة التاريخية : فالرسول ﷺ لما نزل عليه الوحى جعل يصلى الليل كله زمانًا ، وهو قائم على إحدى رجليه ، حتى تورمت قدماه ، وقد أمره الله بالتخفيف عن نفسه فيصلى وينام ، فنسخت هذه الآية قيام الليل[٣] .

---

(١) الجامع جـ ٦ ص ٤٢٠٥ ص ٤٢٠٦ .

(٢) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٥٠٨

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ٦ ص ٤٢٠٧ .

وقيام الرسول وتهجده ليلاً أمر مؤكد للصحابة ولقريش الذين عيّروه بالتعب أو الشقاء الذى يلاقيه من نزول القرآن ، حتى أن بعض المفسرين يجعلون هذه الآية وما بعدها ردًا على كفار قريش فى قولهم الموجه لرسول الله ﷺ .

وهذه القرينة التاريخية مرتبطة بمجتمع قريش بمكة المكون من الكفار والمؤمنين ، فالكفار يسخرون ويتعجبون من قيام رسول الله طول الليل واقفًا على قدم . والمؤمنون يريدون اتباع رسول الله فى كل ما يتقرب به إلى ربه ، والرسول ﷺ لا يجهر بهذا القيام حتى لا يكون سنة للمسلمين من بعده . فالقرينة تاريخية اجتماعية ، فهى متعلقة بمجتمع قريش بشقيه المؤمنين والكفار .

والقرينة الأخرى التى نراها قد أدت دورًا وظيفيًا فى تحديد الدلالة هى **القرينة اللفظية** التى تضمنتها الآية الثانية وهى قوله تعالى ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ وهى تأكيد على ما يقوم به الرسول من جهد فى إقامة الليل بقراءة القرآن والتعبد به ، والحقيقة أن الرسول لا يشقى ولا يتعب من قيام الليل ، لأنه يجد السعادة الكبرى فى ذلك . ونفى الشقاء عن الرسول يوضح قرب دلالة الأمر بالتخفيف فى قوله تعالى ﴿طه﴾ .

ويمكن أن نضيف إلى هاتين القرينتين **قرينة ثالثة** وهى ما نستطيع أن نسميها **بالقرينة النفسية** ، ويمكن أن نلخصها فى كيفية قيام رسول الله ﷺ ، فلقد سلك الرسول فى تهجده مسلكًا لا يقدر عليه إلا أقوياء النفوس ، وهو يمثل قمة الإخلاص فى الطاعة والعبادة والتقرب للخالق ، والاستمرار فى هذا المسلك عبء على المسلمين بعد ذلك ، فأمر الله قد جاء للتخفيف عنه أولاً ، وعن المسلمين ثانيًا حتى لا يكون ذلك عليهم تكليفًا أو حجة .

وهكذا قد رأينا دور القرينة فى توجيه الذهن إلى المعنى المراد من الإشارة أو العلامة على اختلاف أنواعها ، ومسلك المفسرين الذين لم يتوصلوا إلى دلالة محددة للآية يؤكد على أنها علامة أو إشارة إلى معنى لم تحط به اللغة ، وكذلك نجد أن مسلك الذين استعانوا بالقرائن أو السياقات ليقتربوا من الدلالة المقصودة – يؤكد أيضًا أنها علامة سيميولوجية لا تدرك دلالتها إلا بالاستعانة بالوسائل الاجتماعية والنفسية .

ولعلنا نجد فى آية أخرى ما يوضح الأنظمة السيميولوجية غير اللغوية ، ونتوقف عند استواء الرحمن على العرش .

٢ – قال تعالى : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ .

هذه الآية الكريمة تتضمن ألفاظًا ذات دلالات معهودة لدى المتكلمين بالعربية ، لكن نتج عن تركيب بعض الألفاظ فيها خروج عن المألوف لديهم ، وهو يتمثل فى إسناد الاستواء إلى الرحمن جل ثناؤه ، فخرجت دلالة الاستواء إلى غير ما عرفت به لدى العرب ، لأن الله تعالى مُنَزه عن التشبيه ، وأن صفاته لا تماثلها صفات المخلوقين ، ولو كان إسناد الاستواء إلى فرد من المخلوقات لما استوجب الموقف تحذير العلماء من الخوض فى توضيح كيفيته ، وما كانت هناك مشكلة دلالية متعلقة به .

وقد جعل تحذيرهم هذا التركيب الإسنادى علامة سيميولوجية عامة ، ولم يعد نظامًا لغويًا فقط ، لأن الدلالة الاصطلاحية للفظة استوى قد تحولت لعدم مناسبتها للمسند إليه . وقد ورد فى الآية الرابعة والخمسين من سورة الأعراف لفظة (استوى) مسندة إلى الله تعالى ، وسورة الأعراف نزلت قبل سورة (طه) كما أسلفنا . قال تعالى ﴿إنّ ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يُغشى الليل النهار يطلُبُه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمرُ ، تبارك الله ربُّ العالمين﴾[1] .

ويلحظ أن ذكر الاستواء مسندا إلى الله فى الآيتين – جاء بعد ذكر خلق الله للسموات والأرض ، ففى سورة الأعراف جاء قوله تعالى « ثم استوى على العرش » ، وفى سورة طه جاء قوله ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ .

وفى آية الأعراف وردت قدرته سبحانه وآياته فى تصريف الليل والنهار وما فيهما من (قمر ونجوم) وكلها تشهد وتسبح بقدرته سبحانه . أما الآية التى تلت آية الاستواء فهى تشير أيضًا إلى قدرته وملكوته ، والكون كله يصرفه كما شاءت رحمته ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾[2] .

فالاستواء فى الآيتين مسند إليه سبحانه ، ومذكور فى مقام القدرة الإلهية التى أبدعت الكون على غير مثال سابق ، ويعقبهما التسبيح بحمده وهو واجب على كل المخلوقات .

---

(١) سورة الأعراف : آية ٥٤ .

(٢) سورة طه : آية ٦ .

وأصل الاستواء فى كلام العرب العلو والارتفاع كما أورد القرطبى عن أبى عبيدة متمثلاً بقول الشاعر[١] :

فأوردهم ماء بصنعاء قفرة وقد حلق النجم اليمانى فاستوى

كما نقل عن الجوهرى أن معنى الاستواء هو الاستيلاء والظهور ، وأنشد فى ذلك قول الشاعر[٢] :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

هذا هو مفهوم الاستواء عند العرب ، أو هذه هى دلالته المتفق عليها فى لغة العرب العرباء ، لكن العلماء من أهل السلف ورجال الحديث قد احتجوا بحديث أم سلمة رضى الله عنها ، وأقاموا عليه تحذيرهم من الخوض فى كيفية الاستواء المسند إلى الله سبحانه ، ففى الحديث عن الحسن عن أمه عن أم سلمة فى قوله تعالى : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ قال : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به من الإيمان ، والجحود به كفر[٣] .

وقد أورد السيوطى عن محمد بن الحسن قال : اتفق الفقهاء من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه[٤] .

ومن موقف العلماء ورجال الحديث امتنع أكثر المفسرين عن تفسير مثل هذه الآية ، ومثال ذلك موقف ابن كثير من تفسير قوله تعالى ﴿ثم استوى على العرش﴾ فهو يشير إلى الأقوال الكثيرة التى وردت فى هذا المقام ، ولا يذكر شيئًا ، وإنما يكتفى بإعلان موقفه منها ، فهو متبع مسلك أهل السلف فقط ، مثل مالك والأوزاعى والثورى والليث بن سعد والشافعى وأحمد وإسحاق بن راهوية وغيرهم من أئمة المسلمين ، وموقفهم من مثل هذه الآيات هو بإمرارها كما جاءت من غير تكييف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفى عن الله ، فإن الله لا يُشْبِهَه شىء من خلقه ، وليس كمثله شىء[٥] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ٤ ص ٢٦٥٦ .
(٢) الجامع جـ ٤ ص ٢٦٥٦ .
(٣) انظر معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى جـ ١ ص ١٤٦ – ١٤٧
(٤) انظر معترك الأقران فى إعجاز القرآن جـ ١ ص ١٤٧ .
(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٢ ص ٢٣٠ .

كما رأى المتكلمون وجوب تنزيه البارى عن الجهة والتحيز ، لأن اختصاص الله بجهة يستوجب أن يكون فى مكان ، ويلزم على المكان والحيز الحركة والسكون للمتحيز ، والتغير والحدوث[١] .

وعلى الرغم من لجوء بعض المفسرين إلى التأويل إلا أن رأى الفقهاء والمحدثين قد شاع وسيطر على اتجاه المفسرين ، ورجال التأويل من المفسرين يلجأون إلى المجاز فى مثل هذه الآيات ، وقد كان إنكار المجاز فى القرآن وآيات التشبيه الخاصة رد فعل لما قاله أهل التأويل من المعتزلة وغيرهم .

وقد فسر الزمخشرى الاستواء المنسوب إلى الرحمن باللجوء إلى المجاز ، فهو يُعْده ضربًا من الكناية عن الملك ، وهو على نسق ما قيل فى اليد المنسوبة إلى الله يقول الزمخشرى فى قوله تعالى ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن المُلك ، فقالوا : فلان استوى على العرش يريدون ملك ، وإن لم يقعد على السرير ، وقالوه أيضًا لشهرته فى هذا المعنى ، ومساواته ملك فى مؤداه ، وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر ، ونحوه قولك : يد فلان مبسوطة ، ويد فلان مغلولة ، بمعنى أنه جواد أو بخيل ، لا فرق بين العبارتين إلا – فيما قلت – حتى إن من لم يبسط يده قط بالنوال ، أو لم يكن له يد رأسًا ، قيل فيه يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم هو جواد .

ومنه قول الله عز وجل ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ أى بخيل – بل يداه مبسوطتان ، أى هو جواد من غير تصور يد ولا غلّ ولا بسط ، والتفسير بالنعمة والتمحل للتثنية من ضيق الطعن والمنافرة عن علم البيان مسيرة أعوام .. »[٢] .

وبغير التأويل المجازى لمثل هذه الآيات – تبقى دلالة الاستواء المنسوب إلى الرحمن – غير متصورة عند أهل السنة من الفقهاء ورجال الحديث ، فهم يثبتون الاستواء لكنه ليس كاستواء البشر ، كما أثبتوا لله يدا على سبيل الحقيقة ، لكنها ليست كأيدى البشر .

وبهذا يكون الاستواء عندهم علامة على حقيقة ثابتة له سبحانه ، لكنها مجهولة الكيفية ، وعلى المفسرين أن يتركوا البحث والتفسير فيها ، فمن المستحيل أن تكون للاستواء المسند إلى الله دلالة اصطلاحية .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ٤ ص ٢٦٥٥ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٥٣٠ .

والذى جعل استواء الرحمن علامة سيميولوجية اتجاه مجتمع فقهاء أهل السنة ورجال الحديث ، فالأثر الاجتماعى هو الذى أدى هذا الدور فى الدلالة .

ومجتمع أهل التأويل ممن يقولون بالمجاز فى آيات التشبيه – هو الذى أدى دوره عندهم فى تحديد دلالة الاستواء المسند إليه سبحانه بالرجوع إلى المجاز .

ويقرب من هذا قوله تعالى ﴿ولتصنَع على عينى﴾ : فإضافة العين إلى الله عند الفقهاء ورجال الحديث وأهل السلف حقيقة ثابتة ، فللّه سبحانه عين لكنها ليست كعين البشر ولا يستطاع تصورها ، ولا يجوز تشبيه صفاته بما للمخلوقين من صفات ، كما لا يجوز بيان كيفيتها ، ويجب على المفسرين إمرار هذه الآيات وتركها بلا تفسير .

أما رجال التأويل فإنهم يلجأون إلى العرف اللغوى ، معنى ﴿ولتصنَع على عينى﴾ هو أن تربّى وتغذى على مرأى منى وذلك كما يقول ابن النحاس . وقيل معناه هو : بمشيئتى (انظر الجامع جـ٦ ص٤٢٣٨) .

٣ – قوله تعالى : ﴿إذ رأى نارًا﴾

إن رؤية النار ليلاً أو نهارًا أمر مألوف ، ولا تتساوى دلالتها فى النهار مع دلالات رؤيتها ليلاً ، والعرب يفخرون بإيقادهم النار ليلاً ، للصلة التى بين الإشعال وفضيلة الكرم وغيرها . وهذه الدلالات المعهودة من رؤية النار ليلاً أمر شائع ، ومردفاته أو ملزوماته تؤدى إلى المراد ، فيصبح من التعبير الكنائى الذى يعدونه ضربًا من المجاز .

لكن الأمر يختلف فى رؤية موسى للنار ليلا ، فقد بصر بتلك النار بعد أن فشل فى إيقاد نار له ، فلم تور المقدحة شيئًا ، وكان ذلك فى ليلة شاتية مظلمة مثلجة ، ومع زوجته ، وولد له غلام فى تلك الأيام التى عاد فيها من مدين إلى مصر بعد قضاء الأجل المبرم بينه وبين صهره . ويقال إنه قد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ، ولم يبق معه أحد من رفاق الطريق إلا زوجته ووليده الصغير .

لقد رأى النار بعد أن فشل فى إيقاد شىء منها ، فأنس إلى رؤيتها ، وطلب من زوجته أن تمكث فى مكانها لا تغادره ، وسيتوجه إلى مصدر النار ليأتى بجذوة متقدة لتدفئ الضعيفين زوجه وولده ، وليعرف بها طريقه بعد أن ضل تائهًا .

لقد ذهب إلى مصدر النار لكن المفاجأة استولت عليه ، لم ير موسى نارًا كالنار المعهودة ، بل رأى – كما يروى عن ابن عباس شجرة عناب ، أو شجرة عليق كما يروى عن المهدوى[١] .

لقد وقف موسى متعجبًا من حسن ذلك الضوء ، وشدة خضرة تلك الشجرة ، فلا شدة حر النار تغير تلك الشجرة ، ولا كثرة ماء الشجرة تغير من حسن ضوء النار .

لما رأى موسى تلك النار قصدها ، فتأخرت عنه ، فرجع وأوجس فى نفسه خيفة ، ثم دَنت منه ، وكلمه الله من تلك الشجرة[٢] .

لقد كانت رؤية موسى للنار على هذه الكيفية أمرًا مخالفًا لما تجرى به العادة ، فنورها لا يشع من احتراق زيت أو قش أو خشب ، بل رآه فى شجرة نامية شديدة الخضرة ، ممتلئة بالماء والعصارات ، وأمرها عجيب معه إذا اقترب منها ابتعدت عنه ، وإذا خاف ورجع دنت منه . وإن أمر خروج تلك النار عن العادة قد اكتمل عندما نودى موسى منها إن هذه الصور وتلك النار وذلك الكلام علامات لم تكشف اللغة عن الدلالات الحقيقية لها . أما موسى فقد تيقن من تميزه ، واختصاصه بأمر لم يحظ به الأنبياء ، وقد عرف أنه نبى بهذه العلامات قبل أن يبشره الله بالاختيار والاصطفاء ، وقبل أن يكلفه بالدعوة ، ويؤيده بآياته .

إن موسى وحده هو الذى رأى تلك النار ، فلم ترها زوجته ، ولم يجد عند النار أحدًا قد غشاها ، وهذه علامة لموسى وحده ولقد كانت الكيفية التى كانت عليها النار عاملاً قويًا فى إدراك موسى لدلالة تلك العلامة الخاصة .

وفى حياة موسى قبل رؤية النار قرائن تاريخية قد ساعدت على توجيه إدراكه لمغزى تلك العلامة ، ونعنى بذلك نشأته فى قصر فرعون ونجاته من بطشه ، وحياته فى بيت رجل صالح متميز .

٤ – قوله تعالى ﴿أو أجد على النار هدى﴾

إن طلب الهدى يؤكد أنه قد ضل طريقه ، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن موسى عليه السلام كان يسير بأهله ليلا ، وقد افتقد رفاقه فى ليلة مظلمة شاتية ، وعندما رأى النار وجد فيها ما ينفعه ، فهو يرجو أن يحقق منها غرضًا واحدًا من غرضين ، الأول أن يأتى

---

(١) انظر الجامع جـ ٦ ص ٤٢١١ – ٤٢١٢ .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٣١٢ ، والكشاف جـ ٢ ص ٥١٣ .

بجذوة متقدة من تلك النار ليصطلى بها زوجه وولده ، والثانى أن يجد عند النار رجالا يهدونه إلى الطريق الذى ضل عنه . وهذه هى الدلالة الظاهرة القريبة لرجاء موسى من النار . وطلب الهداية لا تخرج دلالته الحقيقية عن معرفة الطريق الذى يسلكه إلى مصر .

ويمكن السكوت عند هذه الدلالة كما فعل المفسرون ، لكن السؤال عن الطريق ليلاً يثير تساؤلات كثيرة فمن الممكن ومن الطبيعى أن يقضى موسى ليلته فى تلك البقعة ثم يتكشف له الطريق بالنهار ويواصل رحلته ، فسؤاله عن الطريق ليلاً هو أمر غير عادى ، وإذا استعنا بالقرائن الأخرى المتعلقة بسلوك موسى ، فإننا نجد الدافع النفسى قد وجه سلوكه ، وقد أشرنا فيما سبق أن غيرته تشكل أمرًا أساسيا فى شخصيته ، فكان يسير ليلاً ويتوقف نهارًا حتى لا يرى رفقاؤه زوجته ، وقد ضل طريقه بسبب غيرته وانفصاله عنهم .

ورجاؤه أن يجد هاديًا عند النار يمكن أن يكون علامة على غيرته الشديدة ، وقد تبين ذلك بما يروى عن مسلكه ، ويمكن أن نعدها قرينة نفسية ساعدت على تحديد الغرض من رجاء الهداية ولعل فيما تبيناه عن غيرته يوضح ذلك .

٥ – قوله تعالى ﴿فاخلع نعليك﴾[١] .

لقد دنت النار من موسى بعد خوفه وتراجعه ، وخلال تأمله وتعجبه الشديد من تلك النار المتأججة فى شجرة العناب أو العليق دون أن تحرقها – سمع صوتا يناديه باسمه ، وكم كان عجبه من ذلك النداء لأنه يخاطب باسمه من جهة ولأنه نداء صادر من شجرة من ناحية أخرى ، وذلك كما جاء فى سورة القصص ، قال تعالى ﴿فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين﴾[٢] وكم كانت سعادته عندما علم أن مكلمه هو الله تعالى فقد أخبره سبحانه بذلك ﴿إنى أنا ربك﴾ وكان أول أمر منه سبحانه أن يخلع موسى نعليه ﴿فاخلع نعليك﴾ .

إن الدلالة المعهودة للنعلين هى ما يكون وقاية للقدمين من الأرض ، وهما يؤخذان من جلد الحيوان ، وكان موسى يتخذ لنفسه نعلين كما يفعل أحرار الناس ، وقد كان الأمر بخلع موسى للنعلين محلاً لتعدد آراء المفسرين ، وقد جمع القرطبى هذه الآراء المختلفة ونوجزها فيما يلى :

---

(١) سورة طه آية ١٢ .

(٢) سورة القصص آية ٣٠ .

(أ) قيل إنه أمر بطرح النعلين لأنهما نجستان فهما من جلد حمار ميت غير مدبوغ .

(ب) وقيل : أُمِرَ بذلك لينال بركة الوادى المقدس ، وتمس قدماه تربة الوادى .

(جـ) وقيل : أُمِرَ بخلعهما للخشوع والتواضع عند مناجاة الله تعالى ، ويمثل أصحاب هذا القول بما فعله السلف عند الطواف بالبيت .

(د) وقيل : إن ذلك من أجل إعظام الموضع كما يصنع الطائفون بالبيت وهو قريب من القول السابق .

(هـ) قيل إنه عبارة عن تفريغ قلبه من أمر الأهل والولد .

(و) وقيل إن بسط له بساط النور والهدى ، ولا ينبغى أيطأ بساط ربّ العالمين بنعله .

(ز) وقيل خلع النعلين هو أول فرض على موسى ، وقيل كونه فرضًا أمر بعيد ، لأن الفرض يكون بعد التكليف بالرسالة[1] .

وكل هذه الأراء لها ما يدعمها من أسس عند أصحابها ، لكننا نرى وجها واحدا له لادلالته العميقة التى نتوقف عندها ، ونعنى به الرأى الخامس الذى قيل فيه إنه عبارة عن تفريغ القلب من الأهل والولد ، فخلع النعلين عند أول وهله لا يؤدى بأى حال إلى تلك الدلالة ، وتظل العلاقة مقطوعة بين خلع النعلين ، وهى علامة سيميولوجية فى نظرنا ، والدلالة التى توقفنا عندها ، وهى تفريغ القلب من الأهل والولد .

وهنا تبدو حاجتنا إلى القرائن المختلفة التى تشير إلى الدلالة الحقيقية .

وأول تلك القرائن أن الصلاة بالنعلين ليست محرمة ، بل هى جائزة بشرط طهارتها ، وشرط الطهارة يجرى على كل ما يُلبْس ، وقد صلى رسول الله ﷺ بهما ، ولم يخلعهما إلا فى حالة وجود قذر لهما ، ففى حديث سعيد بن يزيد عن أنس أنه قال : « قلت لأنس : أكان رسول الله ﷺ يصلى فى نعلين ؟ قال : نعم » أخرجه مسلم .

وقد أورد أبو داود عن أبى سعيد الخدرى أن الرسول ﷺ خلع نعليه عندما كان يصلى بأصحابه ووضعهما عن يساره فألقى الصحابة نعالهم اقتداء برسول الله ، فقال

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢١٢ – ٤٢١٥ ، وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٣ ص ١٤٣ ، وانظر الكشاف جـ ٢ ص ٥٣١ .

رسول الله ﷺ « إن جبريل أتانى فأخبرنى أن فيهما قذرا » وقال : « إذا جاء أحدكم المسجد ، فلينظر فإذا رأى فى نعليه قذرًا أو أذى فليمسحه وليصلّ فيهما »[١] .

ولا يقف أمر النعلين عند جواز الخلع أو عدمه ، بل أن بعض العلماء قد قالوا : إن الصلاة فيهما أفضل . وهو معنى قوله تعالى ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ .

هذه قرينة نصية تضعف بعض الآراء وتقوى الرأى الأعمق .

أما القرينة الثانية فهى مؤسسة على تعبير له دلالته الاجتماعية عند كثرة من الناس ، ومؤاده أنّ من رأى نفسه فى المنام لابسا نعلين فإنه سيتزوج[٢] .

وهذه قرينة اجتماعية تبين نظرة المجتمع إلى مكانة الزوجة والولد ، فهما فى خدمة رب الأسرة ، وتحت إشاراته ، وهما أيضا زينة الحياة الدنيا وبهجتها ، والتخلى عنهما ، وإفراغ القلب منهما معناه ترك بهجة الحياة ومتعتها وزينتها ، وقد سعى موسى إلى النار من أجل زوجته وولده اللذين يشغلان قلبه .

وبهاتين القرينتين النصية والاجتماعية يمكن أن نعدّ الأمر بخلع النعلين علامة سيميولوجية لم تتمكن اللغة من الإحاطة بها ، والقرائن هى التى وصلت بين الإشارات والدلالة المنصودة ، وخلع النعلين علامة أو إشارة مصطلح على دلالتها عند جماعة من الناس ، ولم يعد ذلك الاصطلاح أو الاتفاق قائما ، لذلك لزم وجود القرائن التى تربط بين العلامة التى تعتمد على البصر والحركة ودلالتها الصحيحة .

٦ – قوله تعالى ﴿هى عصاى﴾[٣] .

لقد جعل الله سبحانه آياته الكبرى فى أتفه الأشياء التى لا يلتفت إليها أحد ، وكانت عصا موسى مثالا على ذلك ، فهى لا تتميز على غيرها من العصى ، وموسى ينتفع بها على حسب حاجته لها ، ومن الممكن أن يبدلها بعصا أخرى فى أى وقت شاء .

ولأول وهلة نرى العصا قد كمنت فيها معجزات موسى التى أيده الله بها ، فأمره الله بإلقائها على الأرض فصارت حية تسعى ، ثم عندما خاف وارتعد أمره سبحانه أن يأخذها فأخذها فصارت عصا كما كانت من قبل ، وأمره سبحانه أن يضرب بها البحر فتشقق إلى طريق يابسة سار فيها هو وقومه .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٤٢١٣ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٦ ص ٤٢١٣ .

(٣) سورة طه آية ١٨ .

ولنا أن نسأل هل ستتحول العصا إلى حية تسعى لو ألقاها فرعون أو هامان ؟ وهل ستعود إلى سيرتها الأولى لو أخذها شخص آخر غير موسى ؟ وهل سينشق الماء طرقا لو ضربه واحد من بنى إسرائيل بعصا موسى ؟

إن الأمر يتعلق بموسى نفسه ، ولقد هيأ الله له هذه الآيات وحده وكان من الممكن أن يكون بيمين موسى شيء آخر عندما كلمه ربه كحبل أو سيف أو ثوب أو أى شيء آخر . وتكون آية الله فيه .

فالعصا فى ذاتها لاقيمة لها ، وإنما تكمن الآيات الكبرى فى يد موسى التى باركها الله ، فيده هى التى ألقت العصا ، وهى التى أمسك بها الحية فتحولت بأمر الله إلى ما كانت عليه ، ويده هى التى قبضت على العصا وضرب بها ماء البحر . ويده هى التى خرجت من جيبه بيضاء من غير سوء .

وأصبحت يد موسى بأمر الله هى التى تخرج منها المعجزات ، فإلقاؤه للعصا على الأرض إشارة أو علامة دربه الله عليها ، كما كان أخذه للعصا علامة قد تأكد موسى من قيمتها ودلالتها ، وكذلك ضم اليد إلى الجيب ، وصارت تلك الأفعال آيات دالات ، أو علامات يعرف موسى حدودها وكيفتها ودلالتها ، وقد دربه الله عليها وطلب منه أن يذهب إلى فرعون بتلك العلامات المتفق على دلالتها .

ومن هنا نستطيع أن نطلق عليها علامات أو إشارات وهى تدخل فى الأنظمة السيميويولوجية .

وكل معجزة إلهية علامة دالة على قدرة الله وتأييده المطلق ، وإذا كانت العصا فى يد موسى علامة على قدرته سبحانه ، وتشريفا لموسى وتأييدًا لدعوته ، فإنها أيضا إشارة أو علامة لمحمد ﷺ الذى لم يسأل عنها ، ولم تقبض يمينه عليها ، ولم يلقها أمام فراعين قريش الطغاة ، ولم يضرب بها رمال الصحراء لتشقق أنهار ، ومع ذلك فالعصا التى فى يد موسى ليست علامة ذات دلالة سامية لموسى فقط ، بل إن دلالتها السامية أكبر وأعمق لمحمد ﷺ ، فهى علامة على نصره المؤكد له ، لأن الله لا يتخلى عن رسله .

٧ – قوله تعالى ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما﴾ (١)

لقد أسكن الله آدم وزوجة الجنة بعد أن أتم خلقه ، وشرّفه وكرّمه أمام خلقه من الملائكة الذين أطاعوا ربهم فسجدوا لآدم إلا أبليس ، وسجودهم تسليم منهم

---

(١) سورة طه آية ١٢١ .

واعتراف بأن الله فضله على بقية المخلوقات ، وقد حذر الله آدم من إبليس الذى يكيد له ولزوجه ، وأمره ربه بأن يحافظ على بقائه فى الجنة التى لا يجوع فيها ولا يظمأ ، ولا يعرى ، لكن آدم لم يكن له عزم قوى ، فاستمع إلى وسوسة الشيطان ، ونصحه بأن يأكل من الشجرة التىنهاه الله عن الاقتراب منها ، وقد صور له الخلد الذى سيناله بالأكل منها ، وأطاع آدم إبليس ، فأكل من ثمار تلك الشجرة ، وتبعته زوجه .

لقد وقع آدم هو وزوجه فى غواية الشيطان ، وارتكب خطيئة بعصيانه لربه ، وهو أهل للعقاب على ما فعل ، وهذه أمور واضحة ، وقد تاب آدم عن زلته فعفا الله عنه . وقد تمكنت اللغة من تصوير أو التعبير عن تلك الأحداث الكبيرة المتعلقة بآدم وزوجه ، لكن تبقى بقية الآية تلقى تساؤلات توقفت اللغة عن الإحاطة بها ، وتحتاج منا إلى التماس القرائن لتربط بينها باعتبارها نظامًا ، والدلالة التى ترمى إليها .

إننا نعنى بذلك العلاقة بين قوله تعالى ﴿ فأكلا منها﴾ وقوله سبحانه ﴿فَبدَت لهما سوءاتهما﴾ ، وفى تصورنا أن هناك وسائط كثيرة محذوفة بين القولين .

فهل عصيان الله وارتكاب الخطيئة يفتح أبواب الشرور الأخرى التى قد ترتكب ؟

أو هل الأكل من هذه الشجرة يوقظ الشهوة عند الرجل والمرأة ؟ أم أن كشف العورة ذاته يُشعر بالخجل والنقيصة والعيب ؟

إننا فى الحقيقة لانجزم بشىء فعلم ذلك عند الله تعالى ، لقد توقف أكثر المفسرين عن الخوض فى ذلك ، لكن ابن كثير قد لجأ إلى أحاديث متعلقة بهذا الأمر ، فأورد عن شجرة الخلد حديثًا مرويًا عن أبى هريرة وأحمد ، هو قوله ﷺ « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام ما يقطعها ، وهى شجرة الخلد » .

ويورد فى قوله تعالى ﴿فأكلا منها فَبدَت لهما سوءاتهما﴾ حديثا عن أبى كعب هو قوله ﷺ « إن الله خلق آدم رجلاً طوالا ، كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق ، فلما ذاق الشجرة ، سقط عنه لباسه ، فأول مابدا منه عورته ، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد فى الجنة ، فأخذت شعره شجرة ، فنازعها ، فناداه الرحمن : يا آدم منى تفر ؟ فلما سمع كلام الرحمن قال : يارب لا ، ولكن استحياء ، أرأيت إن تبت ورجعت أعائدى إلى الجنة ؟ قال : نعم ، فذلك قوله ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾[1] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ١٦٧ – ١٦٨ .

وينقد ابن كثير سلسلة السند فى هذا الحديث فيرى أنه منقطع بين الحسن وأبىّ بن كعب ، ويقول فى هذا الحديث أيضًا : وفى رفعه نظر[١] .

إن ابن كثير لم يصنع شيئًا فى هذه الآية ، فلقد أورد حديثًا ثم شكك فى صحته ، وهو بهذا العمل يكون كمن توقف عن تفسير الآية الكريمة .

وفى حالة أخذنا بهذا الحديث – فإننا لانجد فيه حلا كاملاً لإشكالية قائمة فى الآية ، فالله جل ثناؤه عندما أسكن آدم وزوجه الجنة جعله لا يجوع فيها ولا يعرى ﴿وإنك لا تجوع فيها ولا تعرى﴾ فكيف بدت سوءاتهما وهما مغطيان بكساء ؟

إن الحديث يشير إلى سقوط لباس آدم عنه عندما ارتكب الخطيئة بأكله من الشجرة . لكنه سكت عن حواء التى لم يرد شىء عنها فى الحديث ، ومعنى هذا أنها مازالت مغطاة بكسائها ، ولم يسقط من عليها . فكيف بَدَت سوءة حواء وهى فى كسائها ؟

وإذا ما أخذنا برأى ابن كثير فى تضعيفه للحديث فإن ظلال الآية يظل قائمًا ، فآدم لا يعرى فى الجنة وكذلك زوجته ، وهنا تبقى الإشكالية بلا حل .

إننا هنا بحاجة إلى قرائن تقربنا من الدلالة المقصودة ، والقرينة التى تساعدنا فى هذا المقام هو القرآن نفسه ، فالقرآن الكريم يعبر عن المعنى المبتذلة بلفظ يرفع من قدرها ، ويبعدها عن دائرة الهبوط أو التدنى ، والعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة قد رمز القرآن إليها ، وأشار بالفاظ أخرى إليها ولم يذكرها بألفاظها الشائعة التى أدينت . وأصبحت تثير الخجل من ناحية ، وتشعر بالتقزز من ناحية ثانية ، وقد استخدم القرآن ألفاظا مثل المباشرة ، أو الملامسة وغيرهما كما فى قوله تعالى ﴿فالآن باشروهن وابتغوا ماكتب الله لكم .. ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد﴾ « البقرة آية ١٨٧ » والمس كما فى قوله تعالى ﴿أو لامستم النساء﴾ « سورة النساء آية ٤٣ والمائدة آية ٦ » وبالرفث كما فى قوله تعالى : ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ « البقرة آية ١٨٧ ، وبالإفضاء كما قوله تعالى ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ « النساء آية ٢١ » وبالدخول كما فى قوله تعالى ﴿من نسائكم اللاتى دخلتم بهن﴾ « النساء آية ٢٣ » وبالسر كما فى قوله تعالى ﴿ولكن لا تواعدهن سرًا﴾ « البقرة ٢٣٥ » .

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ١٦٨ .

وقد فصلنا ذلك فى كتابنا ظاهرة الابتذال فى اللغة والنقد[١] وإذا أخذنا فى اعتبارنا هذا المسلك القرآنى فإننا نستطيع أن نفهم دلالة قوله تعالى ﴿فَبَدَت لهما سواءتهما﴾ مَع أنهما فى الجنة لا يعريان .

إن الله سبحانه قد خلق آدم وحواء كاملين بلا نقص خلقى ، ولم يحدث لهما حادث ينقص شيئًا من تلك الأعضاء ، وسكنا الجنة التى تغلب عليها الحياة الروحانية ، وساكنها ينسى كل ما هو مادى أو شهوانى ، ولقد كان آدم وزوجه على هذه الحال حتى وقعا فى غواية الشيطان ، وأكلا من الشجرة ، وقد كان هذا العصيان بالأكل من شجرة محرمة عليهما – بعثًا على إيقاظ الشهوة بينهما – والله أعلم .

فالعورة مخلوقة وموجودة فى آدم وزوجه ، لكن الحياة فى ظل الطاعة بصفة عامة تنسى الإنسان كثيرا من حاجاته الحيوية ، وإذا كان هذا مما يجوز على الأرض ، فإنه لازم فى الجنة . ومثال ذلك ماللإنسان من أعضاء كثيرة ظاهرة وباطنة لا يشعر بها ، ولا يعرف مكانها ولا عملها – لكنها موجودة وتؤدى وظائفها كما أراد لها خالقها ، وإنما يشعر بها ويتنبه إليها إذا أثاره ألم ، أو لفت نظره إليها ما يثير الانتباه .

إننا نرى – والله أعلم – أن الدلالة القريبة فى قوله تعالى ﴿فَبَدَت لهما سوءاتهما﴾ قد تحددت بالقرائن النصية التى توضح طريقة القرآن الكريم فى التعبير عن المعانى التى تثير الخجل ، والمعانى المبتذلة ، وتكون دلالة ﴿ فَبَدَت لهما سواءتهما﴾ هو استيقاظ الشهوة بينهما مما تسبب فى خلع الكساء عنهما .

ولقد شعرا بالخجل الشديد بعد انطفاء تلك الشهوة ، فأخذا يستران عورتيهما بورق شجر التين ، وهو ورق عريض مستدير .

وبناء على هذا يكون الأكل من الشجرة وهو عصيان لأمر الله – علامة أو إشارة لها دلالتها التى تتمكن اللغة من توصيلها ، وإنما وضحت تلك الدلالة – فيما نرى بالقرائن النصية التى توضح طريقة القرآن الكريم فى تناول هذه المعانى والتعبير عنها ، وبخاصة أن المقام متعلق بالجنة ، وبآدم عليه السلام .

وبعد فإن هناك آيات أخرى فى السورة يمكن أن تكون علامات على دلالات بعيدة ، ولم يتمكن القارئ من إدراكها بالنظام اللغوى الذى وردت فيه ، ومن ثم فإن هذا النظام يمكن تحوله إلى نظام صوتى آخر ، يحتاج إلى علاقات وقرائن وسياقات اجتماعية أو نفسية

---

(١) انظر كتاب ظاهرة الابتذال فى اللغة والنقد د . محمد على رزق الخفاجى ص٤٠ – ٤٢ ط . الدار الفنية .

أو نصية ، ولولا تلك القرائن لما استطاع القارئ أن يهتدى إلى دلالاتها بالنظام الصوتى اللغوى .

وقد اكتفينا بهذا القدر من الشواهد التى توضح لنا الظاهر المتمثلة فى القرآن بوجه عام ، وفى السورة بوجه خاص لننتقل إلى بعض ملامح النظام اللغوى .

ونقرّ فى نهاية هذا الفصل أنه محاولة أو اجتهاد والله أعلم بكلامه العزيز ، ونطلب من الله فى ذلك المقام أجرىّ الاجتهاد والإصابة . إنه العليم الحكيم .

* * *

الفصل الثانى

من الملامح الجمالية للنظام اللغوى

النظام اللغوى هو أيسر الأنظمة السيميولوجية ، وأكثرها ذيوعا فى حمل الدلالات ، واستيعابها : والنظام اللغوى يعتمد فى كل اللغات على الصوت الإنسانى الذى تنتجه أعضاء النطق كاللسان والأسنان والشفتين والأنف والحلق وغيرها ، وهى أعضاء لها وظائفها الحيوية قبل قيامها بوظيفة إنتاج أصوات مخصوصة ذات دلالات متفق عليها ، وهى تختلف من مجتمع إلى آخر ، وهذا التنوع أو الاختلاف فى الاتفاق هو الذى يكثر من تلك الأنظمة الصوتية التى تعرف باللغات . أو نظام الاتصال بالصوت الإنسانى .

وكل لغة ناضجة لها أنظمتها التركيبية التى تبدأ من أصغر وحداتها ، وهى الذبذبات الصوتية إلى أكبرها وأعقدها وهى الأساليب المتنوعة .

والحديث عن النظام اللغوى فى مجتمع من المجتمعات – أمر لا نهاية له ، لأنه يتطلب الحديث عن الوحدات الصوتية الصغرى ، والحروف ، والمقاطع ، والكلمات والجمل ، ثم الأساليب ، وهو ما لامجال للإحاطة به فى هذا المقام ، وقد تناول رجال النحو والصرف والبلاغة هذه الجوانب بالتفصيل .

وقد رأينا الاقتصار فى هذا الفصل على ظاهرتين لهذا النظام ، وهما ظاهرتان تبدوان لنا مترابطتين إلى حد كبير ، ونعنى بهما : ظاهرة كسر البناء اللغوى ، والظاهرة الثانية هى ما تتعلق بالتناسب الصوتى بين الحروف والكلمات والجمل . وسورة طه هى النص الأدبى الرفيع الذى سيكون ميدانًا للتطبيق والدراسة لهاتين الظاهرتين اللغوتين . ولايعنى هذا أنهما غير متمثلتين فى سور القرآن الأخرى ، فالكتاب العزيز أرحب مما نتصور ، وهو الكنز الذى لا ينفد ، وبخاصة فى مجال الدراسات اللغوية ، وسورة طه عينة تمثل القرآن الكريم خير تمثيل .

* * *

أولا : ظاهرة كسر البناء اللغوى

وقد تحدثنا عن هذه الظاهرة بوجه عام فى كتابنا (علم الفصاحة العربية مقدمة فى النظرية والتطبيق) عند تناولنا شرط خلوص المفرد من مخالفة القياس اللغوى ، وشرط خلوص المركب من ضعف التأليف ، وفى علاقة الفصاحة بقواعد النحو والصرف[١] ، ونحن نتناول هنا ماورد فى السورة الكريمة من ملامح تمثل هذه الظاهرة .

إن الكلام الفصيح هو الذى يبنى أو يركب على طريقة العرب العرباء الذين يحتج بكلامهم ، وهذا يعنى ضرورة مراعاة القواعد الصرفية والنحوية .

فبناء الكلمة المفردة يقوم على ما وضعه رجال الصرف من موازين وابنية مستخلصة من الكلام العربى الذى يحتج به ، وكذلك القواعد التى استنبطها رجال النحو من كلام العرب حتى نهاية القرن الثانى الهجرى .

وما يخالف قواعد الصرفيين والنحاة لا يعتد به ، وهو إما خطأ يلقى به فى سلة المهملات ، أو شاذ ، أو ضعيف ، ولرجال اللغة مواقفهم منهما ، وهى آراء مدونة فى كتب النحاة ورجال الصرف .

لذلك لا يحكم على قواعد الصرف والنحو بالجمال والقبح ، وإنما يحكم عليها بالصحة والخطأ . ولا مجال للبلاغيين والنقاد فى أبنية أو تراكيب النحاة والصرفيين الذين ينظرون فيما هو واجب فى ضوء كلام العرب الفصحاء ، ويأتى دور البلاغيين بعد ذلك لينظروا فيما هو جائز ، وهو الذى تتفاوت فيه المقامات ، وتختلف فيه المقالات .

وإذا كان البلاغيون ينظرون فى الكلام بحسب الأغراض والمقامات والأحوال – فإن دورهم ينتهى عند ذلك ، ويأتى دور جماعة من النقاد الذين يقيمون أحكامهم على الأثر الجمالى الناتج عن التركيب ، بصرف النظر عن القواعد التى رسمها رجال البلاغة أو النقد البيانى :

---

(١) انظر كتاب علم الفصاحة العربية د . محمد على رزق الخفاجى ص ٩٦ – ١١٠ ، ص ١٣٣ – ١٣٦ ط . دار المعارف الطبعة الثانية سنة ١٩٨٢م

فالكلام الفصيح هو الذى يوافق كلام العرب الفصحاء ، وهو كلام استنبطت منه قواعد النحويين والصرفيين . وما يخالفه لا يعتدّ به ، وما خالف فى عصر الاحتجاج أحكام الكلام العربى ، فلا يجوز الحكم عليه بالخطأ ، بل يحكم عليه بالشذوذ ، ومن ذلك ما يفصح فى الشعر فقط ولا يفصح فى النثر[١] .

ويجب أن ننظر بعين الاعتبار إلى تلك المخالفات التى وردت فى أدب كبار الشعراء والكتاب ، وهى عادة ما تكون مخالفات قليلة ، ولا يبنى كلامهم كله عليها ، ولقد توقف اللغويون عند مداخلات الفرزدق ، واختلف النقاد فى تخريج أوجه جمالية لها ، وكذلك صنعوا فيما ورد فى شعر أبى تمام والمتنبى وغيرهما ، فهم يخرجون على قواعد النحاة وابنية الصرفيين فى أبيات كثيرة فى شعرهم ، وخروجهم عليها لا يرجع – بطبيعة الحال – إلى عجز أو جهل بها ، بل هم يقصدون ذلك الخروج قصدًا ، ليحققوا به غرضا جماليا ، هو فى نظرهم ونظر نقادهم أهم بكثير من مراعاة القاعدة النحوية ، أو البناء الصرفى .

وهذا المسلك ليس قاصرًا على أدباء العربية الكبار ، بل هو شائع عند الأدباء العالميين الذين عرفوا بجودة الأسلوب فى لغاتهم مثل فيكتور هيجو وفولتير وراسين فى الأدب الفرنسى . وشكسبير وكوليردج وتوماس هاردى فى الأدب الانجليزى ، ولا يستطيع أحد أن يتهم هؤلاء بالعجز عن إدراك قوانين التراكيب فى لغاتهم . بل إن خروجهم على تلك القوانين يلقى من نقادهم وقارئيهم إعجابا شديدًا ، لأنهم يدركون ماحققه ذلك الخروج من قيمة جمالية رفيعة ، لا تتحقق بمراعاة قواعد البناء أو التركيب ولا يقدر على ذلك إلا الأفذاذ من الأدباء .

فظاهرة كسر البناء اللغوى شائعة فى الدراسات الأسلوبية وهى معروفة باسم Rupture De Syntaxe وتراثنا الأدبى حافل بأمثلة فريدة سجلها النقاد ، واختلفوا فى تأويلها وقيمتها الجمالية : ومنهم من عاب أصحابها عليها .

أما القرآن الكريم فقد ضرب فى ذلك المثل الأعلى ، وبذل اللغويون جهدًا كبيرًا لإيجاد الوجوه الملائمة لها من كلام العرب ، أو من القراءات القرآنية ، وعدوا هذه الظاهرة من مشكل القرآن ، وعكف بعضهم على تأويلها ، كما فعل ابن قتيبة فى كتابه (تأويل مشكل القرآن) ، وكما صنع السيوطى فى (معترك الأقران) ، والزركشى فى

---

(١) انظر كتاب علم الفصاحة العربية فى بحث علاقة الفصاحة بالضرورات الشعرية ص ١٠٨ وما بعدها .

(البرهان) وغيرهم ، ومنهم من ربطها بفواصل القرآن ، كابن الصائغ فى (إحكام الرأى) والمخللاتى فى (القول الوجيز) ، وهى محاولات لها قيمتها فى زمانها ، وتمثل لنا مرحلة من مراحل النقد اللغوى ، وتصنف فى تاريخ الدراسات الأسلوبية .

ونحن نقف عند بعض الشواهد القرآنية لهذه الظاهرة فى سورة طه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لا تخاف دَرَكا ولا تخشى﴾[1] .

وقد جاء ذلك بعد قوله تعالى ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن اسر بعبادى فضرب لهم طريقا فى البحر يبسًا﴾ فإبقاء حرف المد مع الجزم يخالف ما جرت عليه عادة العرب فى كلامهم ، وهو يخالف أيضا ما جاء فى القرآن الكريم نفسه ، فالأفعال المجزومة وجوبًا أو جوازًا يحذف منها حرف المد ، وتكون علامة الجزم حذف حرف العلة نيابة عن السكون فى الأفعال المعربة التى اعتل آخرها وكذلك فى حالة الأمر من هذه الأفعال فإنها تبنى على ما يجزم به مضارعها ، ونحن نجد إبقاء حرف المد فى الفعل المضارع المجزوم ، وهو أمر يثير تساؤلات رجال اللغة ، ويدفعهم إلى البحث عن وجه يفسرون به مخالفة القرآن لقواعدهم المستنبطة من كلام العرب والقرآن نفسه .

وقد جاءت الآية السادسة من سورة الأعلى على نسق هذه الآية الكريمة ، وذلك فى قوله تعالى ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ فلم يحذف المد من « تنسى » وهو أمر يدعونا إلى الربط بينهما ، ومن الملحوظ أن السورتين (طه) و (الأعلى) تشتركان فى فواصل الآيات فكلتاهما تضم آيات قصيرة ، وتضم عددا قليلاً من الكلمات ، كما تختتم الفواصل فى السورتين غالبا بالألف المقصورة .

وهذان الأمران وغيرهما يجعلنا نعتقد أن كسر البناء فيهما راجع إلى غرض واحد .

وقد أورد الزمخشرى أن هناك قراءة بحذف حرف المد ، فقرئ « لا تخف » على أنه جواب للأمر السابق « فاضرب لهم طريقًا » . وهنا لا تكون إشكالية فى قراءة « لا تخف » ، وتبقى إشكالية أخرى فى قوله تعالى ﴿ولا تخشى﴾ .

ويورد الزمخشرى فى حالة هذه القراءة ثلاثة أوجه :

الأول منها : أن يكون الكلام قد جاء على الاستئناف ، كأنه قيل : وأنت لا تخشى ، أى ومن شأنك أنك آمن لا تخشى .

---

(١) سورة طه آية ٧٧ .

والثانى : أن تكون الألف فى « تخشى » ليست حرفًا أصليًا فى الفعل ، أى أن لام الفعل قد حُذِفت ، وتكون الألف المثبتة فى « تخشى » زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة ، كقوله تعالى ﴿فأضلونا السبيلا﴾ و ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ .

والثالث : أن يكون مثل قول الشاعر :

كأن لم ترى قبلى أسيرًا يمانيًا [١] .

إن الزمخشرى قد أقام تخريجه لقوله تعالى ﴿ولا تخشى﴾ على قراءة أخرى للمعطوف عليه هى « لا تخف » ومعنى هذا ان الإشكالية قائمة بغير هذه القراءة ، وبخاصة أن المثبت هى القراءة بالمدّ « لا تخاف » .

إن تخريج الزمخشرى يدور حول كون الألف فى « يخشى » أصلية أو غير أصلية . فإن كانت أصلية فهو يبحث عن وجه يمنع الجزم ، وإن كانت زائدة فإنه يبحث عن وجه لوجودها .

أما بالنسبة لنا فإننا نرى أن الألف المقلوبة عن ياء فى « تخشى » لم تأت على الطريقة الغالبة فى كلام العرب ، وإنما قد خالفها القرآن فى هذا المقام ، وذلك لرعاية المناسبة . والمناسبة هنا ليست حالية ، ولا تتصل بقضايا الفكر والتشريع ، بل ترجع إلى الائتلاف أو التلاؤم الصوتى ، أو التناغم بين جمل وألفاظ الآيات القرآنية ، وهى أمور تتعلق بالكم الصوتى ، والمساحة الزمنية ، والتنوع النغمىْ وغير ذلك مما لا يتسع المقام لتفصيله .

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى ﴿وانظر إلى إلهك الذى ظلْتَ عليه عاكفًا لَنُحرِّقنَّه ثم لَنَنْسِفنّه فى اليم نسفًا﴾ [٢] .

هذه الآية الكريمة تتضمن خطابًا من موسى عليه السلام للسامرى على وجه التهديد ، وقد جاء الفعل « ظلّ » مسندًا إلى تاء الفاعل (المخاطب) ، وقد فكّ الإدغام ،وحذفت اللام الأولى (المتحركة) ، ويرى الزمخشرى أن المحذوف هو اللام الأولى ، ونقلت حركتها إلى الظاء ، ويورد أيضًا أن هناك جماعة لا ترى فيها نقلاً للحركة[٣] .

وحذف اللام الأولى يخالف حذف اللام الثانية ، لأن الكم الصوتى ونوعه يتغيران فى الحالتين .

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥٤٦ – ٥٤٧

(٢) سورة طه آية ٩٧ .

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٥٥١ .

والأصل فى معنى ظلّ الإقامة بالنهار ، ثم استعمل فى الدءوب على الشىء ليلاً ونهارًا .

ومجىء (ظلّ) المسند إلى تاء الفاعل يستوجب عند العرب الفصحاء فكّ الإدغام ، فيكون (ظَلَلْتَ) بظاء ولامين ، واللام الأولى متحركة بالفتح والثانية ساكنة ، أما حذف اللام فهو متعلق ببنية الكلمة المفردة ، وهو مخالف للقياس الصرفى ، ولا يوجد مسوغ للحذف عند رجال الصرف والنحاة ، وإنما يدعى هنا رجال البلاغة والنقد ليقدموا حلاً وتفسيرًا فيما عجز عنه رجال الصرف والنحو ، ودور البلاغيين محدود أيضًا هنا ، والنقاد وحدهم مدعوون للإجابة عن مثل هذه الأسئلة ، وتقديم الحلول لما يبدو أنه مشكل ، ولديهم الحس الجمالى ، والثقافة الواسعة ، والذوق الأدبى وهى أمور تعينهم على إيجاد الحلول ، أو التفسيرات الجمالية ، وحذف حرف أو أكثر من الكلمة ، وكذلك الزيادة يخلّ فيها بفصاحة الكلمة المفردة ، وكذلك فك الإدغام بلا مسوغ وغير ذلك مما وقف عنده رجال البلاغة ، وقد حظى فك الإدغام بنصيب أوفر فى كلامهم . ولا يعنينا هنا إلا أن نقول إن فك الإدغام بلا مسوغ ، وحذف بعض الأحرف من الكلمات ، وإضافتها – أمور مخالفة للقياس اللغوى الذى اشترط البلاغيون خلوص اللفظة المفردة منه[1] .

لكننا نلحظ فى الآية الكريمة شيئًا آخر يدعو إلى النظر والتأمل ، وهو الغرض من الأمر الوارد فى خطاب موسى للسامرى ، فقوله ﴿فانظر إلى إلهك﴾ – أى العجل الذى صنعته بيديك – فيه سخرية منه ومن إلهه ، وقوله ﴿الذى ظلْت عليه عاكفا﴾ – فيه إشارة إلى عمله الدءوب فى صنع التمثال نهارًا ، وحراسته له ليلاً .

وهنا نسأل هل يوجد فرق بين دلالة (ظللت) بإثبات اللام ، و (ظلْت) بحذفها .. ؟

إننا نشعر – والله أعلم – بفرق بين دلالة اللفظتين فقوله تعالى ﴿ظلْت﴾ يفيد أن مداومته على العمل ضعيفة وهزيلة مهما طال أجلها ، وعكف عليها بجهده وهمته ، وهى أقل فى الدلالة – من وجهة نظرنا من (ظللت) التى أثبتت فيها اللام ، ورأينا هذا يقوم على ما قاله اللغويون ، وخلاصة قولهم الزيادة فى المبنى يتبعها زيادة فى المعنى .

والتقليل من همة السامرى وعمله – تقابله قوة لا حيلة له معها ، ونعنى بها تهديد موسى له ولإلهه ، وقد ظهر هذا التهديد القوى من فعلين مؤكدين بشيئين هما اللام ونون

---

(١) انظر علم الفصاحة العربية ص ٩٦ – ١٠٨ .

التوكيد الثقيلة ، فقوله تعالى على لسان موسى ﴿لنحرّقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفًا ﴾ – يعبر عن القوة الجارفة ، وقد زاد التوكيد قوة بالمفعول المطلق .

ومعنى هذا أن مخالفة القياس ، أو كسر البناء اللغوى فى قوله تعالى ﴿ظلْت﴾ قد حقق غاية أسمى من المحافظة على ذلك البناء ، ونعنى بها التقابل البديع بين ضعف السامرى ، وقلة حيلته ، وعجز إلهه من ناحية ، والقوة الجارفة القائمة على الحق من ناحية أخرى ، وهى قوة ساعد على إبرازها التوكيد باللام والنون والمصدر . كما ساعد على إبراز ضعف السامرى وعبر عنه ، وصوره ورمز إليه – حذف اللام فى قوله ﴿ظلْت﴾ .

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾ [1] .

فى الآية الكريمة إخبار عن فرعون بأنه سأل موسى عن ربه ، وهو سؤال خرج عن غرضه الحقيقى ، وتحول إلى غاية أخرى ، هى الإنكار ، ففرعون ينكر وجود الخالق ، إله كل شىء وينكر أن يكون لموسى وهارون وغيرهما إله غيره ، والإنكار هنا لا يعنى أن فرعون يجهل عبادات الشعوب المجاورة لمصر ، بل هو يعلم بالتأكيد أن لبنى إسرائيل أنبياءهم الذين بعثوا إليهم ، وعلى رأسهم يوسف الذى سبق موسى إلى مصر بقرن ونصف تقريبًا . وإنما الإنكار على موسى وأخيه وبنى إسرائيل – أن يكون لهم إله غيره ، وموسى قد تربى فى قصره ، وبنو إسرائيل تحت سيطرته ، وهو قادر على البطش بهم متى شاء ، وفى أى مكان فى مصر .

فالإنكار – الله أعلم – بسبب جرأة موسى على دعوته ، وهو الإله الذى يجب أن يسجد له موسى وغيره ، وهو إنكار عليه أيضًا ، لأنه خرج على طاعته بعد أن رباه فى قصره ، وحنت عليه زوجته التى اتخذته كالابن لها .

وجرأة موسى قائمة على الحق ، ومؤازرة من السماء ، ولم تكن جرأة موسى مشوبة بالبذاءات ، والاعتداء على رجل طاعن فى السن ، بل نجده قد أطاع أمر ربه ، بدعوة فرعون بالقول اللين ، ولم تكن الجرأة تطاولاً ، ولولا أدب موسى مع فرعون لما طال بينهما الجدال ، ولما بلغت الدعوة الموسوية غايتها .

ونلحظ فى الآية الكريمة العدول عن نسق الخطاب المعهود فى كلام العرب ، فلقد تحول من التثنية إلى الإفراد ، أى خوطب الاثنان بلفظ الواحد ، وكان من الموقع أن يوجه الخطاب إلى موسى وهارون معًا ، وهذا ما تتطلبه قواعد النحاة ، وهم وبعض النقاد

---

(١) سورة طه آية ٤٩ .

يؤاخذون الشعراء على عدم مراعاة نسق الضمائر فى كلامهم[١] لكن رجال البلاغة يرون فيه تحقيقًا لغرض بلاغى ، ويلحقونه بالالتفات ويلتمسون له الشواهد من كلام العرب والقرآن الكريم ، ويعدونه أيضًا لونًا من خروج الكلام على مقتضى الظاهر[٢] .

وكذلك يصنع النقاد عندما يلتمسون وجوهًا جمالية لمثل هذه الشواهد والأمثلة التى تُعَدْ مخالفة للقياس اللغوى ، أو كسر فيها البناء .

والعدول عن نسق الضمائر فى بعض مخاطبات القرآن ظاهرة متمثلة فيه ، ولها دواعيها الفنية التى تستوجب البحث عنها بثقافة واسعة ، وحس جمالى رفيع .

أما عدول القرآن الكريم عن المثنى إلى المفرد فى الآية الكريمة فله دواعيه ووجوهه التى نشير إلى أهمها :

الأول : أن فرعون قد خصَ موسى بالنداء ليذكره بتربيته له فى قصره ، ويمنّ عليه بما أجزله عليه من نعم ، وهو نداء من شأنه أن يؤثر فى سامعيه ، ويلهيهم عن الغرض الذى سعوا من أجله ، ونداء فرعون لموسى باسمه يتدرج من العتاب حتى التوبيخ ، لكن موسى قوى الإيمان بربه ورسالته التى لا يثنيه أحد عنها ، مهما بلغ من الحنكة والمكر .

الثانى : أن الخطاب قد تحول إلى الأهم ، فموسى عليه السلام هو حامل الرسالة الإلهية ، وهو المختار والمكلف بتبليغ الرسالة ، وقد صحبه هارون بناء على طلبه من ربه وقد ألح موسى فى ذلك الطلب حتى استجاب الله لدعائه بقوله تعالى ﴿قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ .

الثالث : هو أن يكون إشارة إلى خُبْث فرعون ومكره الكبير فهو يوجه النداء إلى موسى ليدعوه إلى الكلام ، فيظهر عيبه فى النطق ، ويتحقق له ما يبغيه من مكره ، حيث يتحول الإعجاب والثقة به إلى التندر عليه ، ففرعون يعرف الرتة أو اللثغة التى طرأت على لسانه منذ كان صبيًا فى قصره ، ويعتقد أنه مازال عاجزًا عن الإبانة والنطق الصحيح ، وقد جاء هارون ليبين عنه ، ولذلك فهو يبعد هارون صاحب اللسان الفصيح ، ويطلب من موسى الإجابة عن سؤاله ، وهو سؤال تطول الإجابة عنه ، وقد فوجئ فرعون بأمرين أبهراه :

---

(١) انظر نقد القاضى الجرجانى للمتنبى فى استعماله الضمائر فى كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٢) انظر معيار النظار فى علوم الأشعار للزنجانى تحقيق د/ محمد على رزق جـ ٢ ص ١٠٤ دار المعارف .

أحدهما : طلاقة موسى ، وزوال الرتة واللثغة عنه ، فقد استجاب الله سبحانه لدعائه ﴿واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى﴾ فموسى لم يعد صاحب الرتة واللثغة .

ثانيهما : أن إجابة موسى عن سؤال فرعون جاءت موجزة شافية جامعة ، بليغة ، لا تحتاج إلى تعقيب أو تذييل .

وقد فوَّت الله على فرعون مكره وخبثه عندما شفى موسى من عقدة لسانه ، وألهمه الإجابة السريعة المُقنِعَة . عندما سأله عن ربه .

والزمخشرى هو الذى يرى هذا الوجه ، ويعده أمرًا محتملاً[١] .

هذه هى الوجوه التى يمكن أن يلجأ إليها المفسرون ورجال علوم القرآن ، وهى وجوه لها قيمتها وأثرها فى فهم الآية .

ونحن نأخذ **بوجه رابع هو الأولى** بالبحث فى مقامنا هذا ، ونعنى به رعاية النسق الموسيقى فى الجمل ، بحيث تتناسق الفواصل وتنتظم فى أغلب السورة على مقطع متوسط مفتوح ، هو مقطع الألف المقصورة .

وكما اكتفى القرآن بالوقوف عند موسى ، ولم يذُكر هارون فى هذه الآية الكريمة ، نرى آية أخرى قد ذكر فيها موسى وهارون ، وموسى هو الأفضل ، لكننا نرى هارون قد سبق موسى فى الذكر ، ومعنى هذا أنه قدم الفاضل وهو هارون عليه السلام على موسى الأفضل منه ، والأفضل أولى بهذا التقديم ، لكن السبب الذى تحول به الخطاب من المثنى إلى المفرد فى الآية السابقة – هو نفسه الذى قدم الفاضل على الأفضل منه . أى لرعاية النسق الموسيقى فى فواصل الآيات الكريمة ، وقد جاءت الآية الكريمة على لسان السحرة ، الذين يدركون فضل موسى ومكانته ، وقد حذرهم موسى من الافتراء على الله كذبًا ، وتأدب هؤلاء السحرة مع موسى فتركوا له حرية البدء فى التحدى ، لكن إخبار القرآن الكريم عنهم فيه رعاية للنسق الإيقاعى فى الفواصل ، قال تعالى : ﴿فالقى السحرة سُجَدا قالوا : آمنا برب هارون وموسى﴾[٢] .

ومن خطاب الاثنين بلفظ الواحد فى القرآن الكريم : قوله تعالى : ﴿فقلنا : يآدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ [٣] .

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٥٣٩ .

(٢) سورة طه آية ٧٠ .

(٣) سورة طه آية ١١٧ .

لقد أخبر الله عن آدم وموقف إبليس منه فى مواضع كثيرة فى القرآن ، والآية الكريمة تتضمن تحذير ربه له من إبليس ، فهو عدو له ولزوجه ، فلا يجوز له الاستماع إليه واتباعه ، لأن هذا سيتسبب فى إخراجهما من الجنة ، فيلحقهما الشقاء .

وقد جاءت الآية الكريمة متضمنة إفراد الشقاء به ، مع أنهما قد اشتركا معا فى سماع غواية إبليس ، وفى الأكل من الشجرة ، وقد جاءت هذه الآية على نسق الآية السابقة ، حيث خوطب الاثنان فيها بخطاب المفرد ، وقد لجأ المفسرون إلى عدة وجوه ليعللوا تحول الخطاب فى الآية ، ومن أهمها :

الأول : أسند لآدم الشقاء بعد إشراكهما فى الخروج ، لأن شقاء الرحل يتضمن شقاء أهله ، وقد جاء ذلك على سبيل الاختصار .

الثانى : أريد بالشقاء التعب فى طلب القوت ، وهو من اختصاص الرجل ، وراجع إليه[1] .

الثالث : أنه إغضاء عن ذكر المرأة .

وهذه الأوجه توضح جهود المفسرين المشكورة ، ونحن نأخذ **بوجه رابع** ، هو ما أشرنا إليه آنفا عند تناولنا للآية السابقة (الآية ٧٧) ، أى تحقيق النسق الموسيقى الناتج عن اتفاق المقطع الأخير فى الفواصل . ولقد تحقق ذلك التناسق أحسن تحقيق .

وهذا يؤكد أن مخالفة القرآن لمقايس اللغة عن قصد قد حقق فائدة ما كان لها أن تتحقق بمراعاة الأبنية أو عادة العرب فى بناء كلامهم .

ونلحظ أن كسر البناء اللغوى فى القرآن عن قصد لم يغير دلالة الألفاظ والتراكيب ، بل زادتها عمقًا ، ووجهتها إلى دقائق وبدائع ، وسبب ذلك فى نظرنا أن أكثرها ، أو كلها تقريبًا قد وقع فى غير الإعراب ، والإعراب هو فرع المعنى كما يقولون ، فتُعْرَف وظائف الكلمات والجمل به . وقد وقع كسر البناء فى أمور منها :

١ – مخاطبات القرآن كالإخبار أو مخاطبة الاثنين كالمفرد وعكسه والمفرد بالجمع وعكسه ، والمتكلم بالغائب ، والمخاطب بالغائب وغير ذلك ، مما لا يغير وظيفة للفظ أو مركب .

٢ – تقديم ما حقه التأخير وعكسه ، كالفاضل على الأفضل والضمير على صاحبه .

---

(١) انظر الكشاف جـ ص ٥٥٥ – ٥٥٦ .

٣ – فكّ المدغم من غير إسناد .

٤ – حذف حرف أو زيادته فى لفظة .

٥ – إبقاء حرف المد مع الجزم .

وهذه الأمور وغيرها مما يماثلها لا تغير وظيفة الكلمة فى الجملة ، ولا وظيفة الجملة فى الكلام . لكنها تحقق غاية أكبر من المحافظة على سلامة البناء .

وبهذا ننتقل إلى الظاهرة الثانية وهى نتيجة مقبولة للظاهرة الأولى وهى :

ثانيًا : ظاهرة التلاؤم الصوتى

وهى ظاهرة واضحة فى القرآن الكريم ، يشعر بها القارئ من أول وصلة ، وهى مرحلة سامية فى الأساليب الأدبية .

وقد اشترط البلاغيون خلوص المفرد والمركب من تنافر الحروف أو الكلمات حتى تتحقق الفصاحة ، وفى الحقيقة أن التنافر فيهما يرجع إلى الحروف . والكلام المدى خلص من التنافر والغرابة ومخالفة القياس فصيح ، لكنه لا يلزم أن يكون متلائمًا صوتيًا . فهو فصيح وإن لم يتلاءم[1] .

ومعنى هذا أن التلاؤم مرحلة فوق الفصاحة ، ولا يلزم كذلك أن يكون التلاؤم بلاغة ، فليس فى قوانين البلاغة الموروثة ما يشكل قالبًا محددًا للتلاؤم ، وكل ما هنالك ألفاظ ذات دلالات غير محدودة ، مثل القِرَان الذى ذكره الجاحظ ، والأخوّة بين الألفاظ ، والعذوبة ، وكثرة الماء ، وجرس الكلمات .

والتلاؤم الصوتى من وجهة النظر العلمية نتاج لتركيب صوتى مخصوص بمقاييس معينة ، وهذا يعنى أن الأصوات الأولية تختلف فى ذواتها وخصائصها عن إفرادها ، وفى حالة تركيبها ، وكل صوت عند تركيبه يحدث له تغيير ، قد يكون بالقوة أو الضعف ، أو الذوبان فى صوت آخر ، ويبرز التلاؤم الصوتى فى امتزاج مجموعة من الأصوات وتلاحمها .

ومن الممكن الشعور بالتلاؤم الصوتى أو التآلف بغير إدراك لدلالة المجموعة الصوتية التى تكونه ، فنحن مثلاً نستمع إلى اللغة الإيطالية من غير معرفة بها ، ونشعر بحسن وقع جملها ومقاطعها فى أسماعنا ، ويحدث ذلك فى فصيح الإيطالية وعاميتها ، وفى محافلها وأسواقها . ويرجع ذلك بصفة عامة إلى نظام التركيب المقطعى أو الكلمات نفسها .

لكن السامع يجد عذوبة فريدة عند سماعه للقرآن الكريم لا تبلغه اللغة الإيطالية الأدبية فى أزهى عصورها ، كما يجد لآياته وقعًا زائدًا فى الحسن ، ويحدث ذلك عند من يفهمه ، ومن لا يدرك معانيه من العرب والعجم .

---

(١) انظر علم الفصاحة العربية فيما كتب عن فصاحة المفرد والمركب .

وتتمثل هذه الظاهرة فى سورة طه خير تمثيل وظاهرة التلاؤم الصوتى Homophone يمكن معالجتها من عدة وجوه ، وبعدة وسائل ، وسننظر إلى هذه الظاهرة من خلال النظام الصوتى المقطعى Syllabic System أو البنية المقطعية Syllabic Structure لأسباب نذكر منها أهمها :

١ – النظام المقطعى يتكون من وحدات صوتية كبيرة يمكن للسامع أن يدركها بيسر ، فقد يكون المقطع مكونًا من حرف أو حرفين ، وهذا يخالف نظام الوحدات الصوتية الصغرى التى لا يدرك بعضها إلا بالتجربة المعملية .

٢ – يمكن تسجيل المقاطع بالكتابة ، كما يسهل طباعتها ، وهذا يخالف الأنظمة الصوتية الأخرى التى يصعب إخضاعها للطباعة المألوفة .

ويجب أن ننبه إلى الاختلاف الكبير بين نظام المقاطع العروضية الموروثة ونظام المقاطع الصوتية التى نقصدها ، فالعروضيون يجعلون المقطع مكونًا من حروف متحركة وساكنة ، لتكون لهم الأسباب والأوتاد ، والفاصلة الصغرى ، والفاصلة الكبرى ، لكننا نجد النظام المقطعى الصوتى يعتمد على وحدات صوتية أصغر ، لأن الحرف الواحد قد يكون مقطعًا صوتيًا وحده ، ومن ثم فإن المقطع العروضى قد يشمل عدة مقاطع صوتية .

وقد رأينا فيما سبق أن المقطع يتكون من صامت consonant وصائت vowel على الأقل ، وقد وقفنا عند التعريف بالمقاطع الصوتية عند تناولنا للآية الأولى من سورة ﴿طه﴾ وقد حصرناها فى أربعة أنواع هى :

١ – مقطع قصير مفتوح short syllable وهو يساوى الحرف المتحرك فى العربية ، ولا يوجد فى العربية مقطع قصير مغلق ، ويرمز للمقطع القصير المفتوح بـ (C.V.) .

٢ – مقطع متوسط مغلق meduim close syllable وهو يبدأ بصوت صامت ، تليه حركة ، يليها حرف صامت ، ويرمز له (C.V.C.) وقد يكون هذا المقطع كلمة أو جزءا من كلمة .

٣ – مقطع متوسط مفتوح meduim open syllable وهو يبدأ بصوت صامت ، يليه صوت صائت طويل ، ويرمز إليه بـ (C.V.V.) وقد يكون هذا المقطع كلمة أو جزءا من كلمة .

٤ – مقطع طويل مغلق long closed syllable وهو يبدأ بصوت صامت يليه صوت صائت طويل ، يليه صوت صامت ، ويرمز إليه بـ (C.V.V.C.) وقد يجىء مقطع طويل مغلق ينتهى بصوت مشدّد ، ويرمز إليه بـ (C.V.V.C.C.)

ولا يوجد مقطع طويل مفتوح ، أى ينتهى بصائت طويل . أى لا يوجد مقطع يرمز إليه بـ (C.V.V.V.V.)

ونحن نلحظ فى السورة الكريمة تميزاً فى مقاطعها عن أكثر السور القرآنية فالفواصل منتهية بمقاطع ذات خصائص صوتية فريدة ، وكلمات الآيات غير الواقعة فى الفواصل لها نظامها المقطعى الذى يستوجب التوقف عنده ، ولذلك سنتناول كل واحدة منهما بعنوان مستقل ، لكن هذا الاستقلال لا يعنى انفصالهما وتباعدهما ، بل هما أكثر ارتباطًا وتلاصقًا ، لأنهما تتضافران لإبراز الجانب الإيقاعى فى الآيات الكريمة .

النظام المقطعى فى فواصل الآيات :

إن عدد آيات السورة قد بلغ خمسًا وثلاثين ومائة آية ، وكل آية لها فاصلتها التى تأتى فى نهايتها ، ونلحظ أن أربع آيات فقط قد جاءت فواصلها مختومة بمقطع مغلق[١] وجاءت مائة وثلاثون فاصلة بمقاطع متوسطة مفتوحة مما يجعلنا نقول : إن سورة طه قد ختمت آياتها بمقاطع متوسطة مفتوحة بل إن ثلاثة مقاطع مغلقة منها يتغير حالها عند الوقف .

ومما يلحظ أيضًا على مقاطع الفواصل المتوسطة المفتوحة أن أكثرها قد جاء بالألف ، أو الفتحة الطويلة ، التى رمزنا إليها (V.V.)أى(a.a.) فقد بلغ عددها مائة وثلاثة عشر مقطعًا (١١٣) .

أما المقاطع المفتوحة المنتهية بياء ممدودة أو كسرة طويلة : - (V.V{ii}) فعددها ستة عشر مقطعًا (١٦) فقط .

وقد جاء مقطع واحد للواو الممدودة أو الضمة الطويلة فى الآيات كلها : {V.V}{oo} وتوجد آية واحدة مختومة بمقطع قصير مفتوح ، وهى الآية (٨٨) ، وفى حالة الوقف تتحول إلى متوسط مفتوح ، وهذا يعنى أن نسبة تردد المقاطع المفتوحة أعلى بكثير من المقاطع المغلقة ، وتردد مقطع الفتحة الطويلة أكبر بكثير من مقطعى الكسرة الطويلة ، والضمة الطويلة ، ونسبة التردد على وجه الدقة كما يلى :

---

(١) الآية ٧٨ والآيات الثلاث التى ختمت بالسامرى وذلك فى حالة الوقف ، وفى حالة عدم الوقف عليها لا تعد مختومة بمقطع مفتوح والآيات هى ٨٥ – ٨٧ – ٩٥ .

نسبة تردد المقاطع المفتوحة إلى كل المقاطع ٩ ,٩٦ ٪
ونسبة تردد الفتحة الطويلة إلى كل المقاطع. ٧٠٣ ,٨٣ ٪
ونسبة تردد الفتحة الطويلة للمقاطع المفتوحة ٩٢٣ ,٨٦ ٪
ونسبة تردد الكسرة الطويلة إلى كل المقاطع ٨٥١ ,١١ ٪
ونسبة تردد الكسرة الطويلة إلى المقاطع المفتوحة. ٣ ,١٢ ٪
ونسبة تردد الضمة الطويلة لكل المقاطع ٧٩ ,٠٠ ٪
ونسبة تردد الضمة الطويلة لكل المقاطع المفتوحة ٨٦٩ ,٠٠ ٪
أما نسبة تردد المقاطع المغلقة لكل مقاطع الفواصل ٩٦ ,٠٢ ٪
ونسبة تردد المقطع القصير المفتوح إلى كل مقاطع الفواصل٠٠٠ ,٧٤ ٪

وهذه الإحصائية تفيد أن الغالبية العظمى لمقاطع الفواصل مختومة بفتحة طويلة ، وبعضها بياء أو كسرة طويلة ، وقد ختمت فاصلة واحدة بمقطع ينتهى بضمة طويلة ، أما الصوت أو الجزء الأول من تلك المقاطع فهو حرف أو صوت صامت ، وهو لا يأتى إلا صامتا ، وذلك على حسب ما أحصيناه من مقاطع ، فليس هناك مقطع طويل مفتوح كما أشرنا . ويلزم أن يكون لدينا عدد من الحروف الصامتة يساوى عدد المقاطع فى فواصل الآيات ، وهو عدد الآيات التى وردت فى السورة الكريمة (١٣٥) .

وقد لحظنا فى جزئى المقاطع التى ختمت بها فواصل الآيات أن الصوت الصامت الذى يقع فى أول المقطع قد اتسم بخصائص قد أحصيناها فيما يلى :

١ – لقد جاءت المقاطع خالية من سبعة صوامت هى : الهمزة ، والثاء ، والجيم ، والذال ، والصاد ، والطاء ، والظاء .

٢ – وقد ورد مرة واحدة ثلاثة صوامت هى : الخاء ، والزاى ، والكاف[١] .

٣ – وورد مرتين كل من : الباء ، والضاد ، والياء[٢] .

٤ – ووردت ثلاثة صوامت ثلاث مرات وهى : الشين ، والغين ، والنون[٣] .

٥ – أما الصوامت التى وردت أربع مرات فهى : التاء ، والحاء ، والعين ، والفاء ، والهاء .

---

(١) هى الآيات ٣٠ ، ٣٤ ، ٧٦ .
(٢) الآيات (٥٦ ، ١١٦) (٨٤ ، ١٣٠) (٧٣ ، ٧٤) .
(٣) الآيات (٣ ، ٤٤ ، ١١٧) ، (٢٤ ، ٤٣ ، ٤٥) ، (٨ ، ٢٧ ، ٣٩) .

٦ – وورد صامت واحد ثمانى مرات هو الواو (المتحركة) .

٧ – وقد ترددت تسع مرات صوامت ثلاث هى : الدال ، والقاف ، والميم .

٨ – وقد تردد صامت اللام ست عشرة مرة .

٩ – كما تردد السين ثمانى عشرة مرة .

١٠ – أما أعلى الصوامت ترددًا فهو الراء الذى جاء فى ثمانية وعشرين مقطعًا .

ونلحظ من خلال تأملنا لهذا الإحصاء أن الجزء الأول من مقطع الفاصلة قد جاء على صوامت معينة ، وقد خلا من بعض الصوامت الأخرى ، وأن ما جاء عليها لم يكن بدرجة تردد واحدة ، وقد جاء بعضها مرة واحدة فقط فى السورة ، أو مرتين أو ثلاثًا ، ومنها ما جاء ثمانى وعشرين مرة ، وهو أمر يدعو إلى التأمل .

ومن الصوامت التى ترد فى مقاطع الفواصل – ما يختص بصفات مشتركة ، فالثاء ، والذال ، والظاء تخرج من مخرج واحد هو ما بين الثنايا ، وهى صوامت احتكاكية ، ومنها ما هو مهموس كالثاء ، وما هو مجهور كالذال والظاء ، والظاء مطبقة ، ووصف الصوامت الثلاثة هو :

الثاء صامت مهموس مما بين الثنايا احتكاكى A voiceless Interdental Fricative consonant

والذال : صامت مجهور مما بين الثنايا احتكاكى Avoiced Interdental Fricative consnant

والظاء صامت مجهور مما بين الثنايا احتكاكى مطبق Avoiced Interdental Velarized Fricative consnant.

وهذه الصوامت يحتاج نطقها إلى جهد عضلى كبير ، لأن وضع طرف اللسان بين الثنايا مع اقتراب الحنك اللين من اللسان يجعل مرور الهواء قليلاً ، وهو أمر يكلف الناطق جهدًا أكبر للإبانة والوضوح . وإذا أضفنا إلى ذلك الهمس فى الثاء ، والإطباق فى الظاء – كان الثقل أكبر ، والاحتكاك فى الصوامت الثلاثة مما يجعل الناطق مطالبًا بجهد عضلى أكبر ، وذلك من أجل وضوح تلك الأصوات ، كما نلحظ أيضًا اشتراك مجموعة لصوامت المشتركة فى الإطباق وهى الصاد ، والطاء ، والظاء ، وقد وردت الضاد مرتين فقط ، وهى نسبة قليلة ، ومعنى هذا أن السورة تتجنب إبراز الصوامت المطبقة فى فواصلها ، والإطباق يتطلب من الناطق أن يقعر وسط اللسان ، ويرفع طرفه الأمامى ، كما يرفع أقصاه نحو الحنك . وتكرار هذه الأوضاع فى الفم يؤدى إلى إجهاد أعضاء النطق . وهذا يعنى أن الصوامت المطبقة ثقيلة على اللسان إذا زادت نسبة ترددها فى الجملة والكلام على الحدّ المقبول ، وهى لا تتعدى مرة واحدة أو مرتين فى الجملة الطويلة أو بيت الشعر .

ومعنى خلوص الفواصل من حروف الإطباق أو ورودها بنسبة قليلة – أنها خلصت مما يسبب ثقلا أو تنافرا لها ، وقد جاءت مكانها حروف لا يسبب تكرارها شيئًا من ذلك . وقد تمثل ذلك بوضوح فى نسبة تردد اللام التى جاءت فى الفواصل ست عشرة مرة ، والراء التى جاءت ثماني وعشرين مرة، وقد وردت الميم تسع مرات ، والنون ثلاث مرات .

ومن المعروف أن اللام والميم والنون من الصوامت التى تشبه الصوائت فى خفتها على اللسان ، ولها تأثير يشبه تأثير الصوائت ، ونعنى به تخفيف الثقل الذى قد يحدث من صوامت مجاورة لها ، وإذا ما تجاورت أشباه الصوائت أو أنصاف الصوائت semi vowels مع الصوائت vowels التى ختمت بها الفواصل كان الكلام أكثر تلاؤمًا وعذوبة ، وكان جريانها على اللسان بخفة ونعومة ، وهى تقع فى الآذان موقعا حسنًا ، ومن ثم تبتهج لها النفوس دون إدراك منها للأسباب .

ومن الجدير بالذكر أن اللام التى وردت فى مقاطع الفواصل المفتوحة – لام مرققة (clear L) وهى التى يرتفع عند نطقها وسط اللسان تجاه الحنك الصلب (أى وسط الحنك) فيكون له رنين يماثل رنين الصوائت الأمامية ، وهو ما لا يحدث عند نطق اللام المفخمة (dark L) وهى التى يرتفع عند نطقها أقصى اللسان نحو الحنك اللين (أى أقصى الحنك) فيكون له رنين يماثل رنين الصوائت الخلفية .

وهذا يعنى أن اللام المرققة تزيد رنين المقاطع الواقعة فى الفواصل ، والذى يزيدها تلاؤمًا وعذوبة أنها متلوه بمقاطع من الصوائت الصافية أو المشرقة ، وهو أمر يسمح بمرور الهواء من تجويف الفم بسهولة ، ويسمح بتردد جدرانه مع عمود الهواء المتردد داخله ، فينشأ عن ذلك التردد الصادر من أجسام مختلفة فى موادها – نغمة ممتزجة مع بعضها ، ومتلائمة وعذبة ، ليس بها نشاز ملحوظ .

أما الراء التى ترددت فى المقاطع الأخيرة من الفواصل بنسبة عالية – فإنها قد أدت دورها فى ذلك التناغم الملحوظ فى الآيات ، ومن المعروف أن الراء العربية صوت صامت مكـرر Rolled consnant وهو يتكون من تتابع طرقات طرف اللسان على اللثة ، واللسان عضو مرن حر الحركة ، ويحدث هذا التذبذب من اللسان بلا وعى أو قصد ، ومعنى ذلك أننا ننطق عدة راءات فى نطق الراء العربية، وهو أمر يجعلها مجهدة للسان عند زيادة ترددها عن النسبة المقبولة وهى ثلاث مرات أو أربع على الأكثر فى الجملة الطويلة أو ببيت الشعر[١].

---

(١) انظر ما كتبناه عن علاقة الأصوات بفصاحة الكلمة – علم الفصاحة ص ٤٠٢ .

لكن أحوال نطق الراء تختلف وفقًا لما يجاورها من أصوات فالراء التى يتلوها صامت مطبق أو مما بين الثنايا ، أو مما يرتكز على الأسنان – تشعر عند نطقها بثقل لا نشعر به عندما تتلوها صوائت أو أشباه الصوائت . وقد جاءت الراء فى فواصل الآيات كلها فى السورة متبوعة بصائت طويل هو الفتحة الطويلة أو الكسرة الطويلة .

وعندما نتذوق نطق الراء المتبوعة بصائت طويل نشعر أنها تختلف إلى حد كبير عن التى تلتها أصوات صامتة ، وهو يرجع من خلال تجربتنا وتذوقنا لها إلى أن التكرار الذى يحدث من نطق الراء العربية – قد نقص إلى أقل من النصف تقريبًا ، فإذا كان تكرار الراء العربية تصل إلى أكثر من عشر مرات فى حالة سبقها لصوامت ، فإن ترددها لا يزيد – فى نظرنا – عن ثلاث مرات أو أربع فى حالة مجاورتها للصوائت .

والقدر المتبقى من تكرارها فى مقاطع الفواصل كفيل بإحداث إيقاع عذب يساعد على إبرازه الجهر فى الراء ومجاورتها للصوائت المفتوحة ، وما أحدثه تكرار الراء من إيقاع ذى مذاق متفرد نجد ما يماثله فى تردد السين .

وتردد السين قد بلغ فى السورة ثمانى عشرة مرة ، وهى نسبة متوسطة عند قياسها بنسب الصوامت الأخرى ومع أن السين صامت مهموس لثوى احتكاكى – إلا أن مجاورته للصوائت الطويلة قد أخرجته من دائرة الخفوت ، وجعلت نغمة الصفير واضحة[1] تقع موقعها الحسن فى الآذان ، وتصبغ الإيقاع بالتنوع الممتاز .

النظام المقطعى فى غير الفواصل

أما عن تردد المقاطع المفتوحة فى حشو الآيات فإنه أمر يدعو إلى دراسة مستقلة ، ولانملك الآن إلا أن نشير إلى بعض الخصائص التى تؤدى دورًا ملحوظًا فى التلاؤم الصوتى.

وأول ما نلحظه أن غالبية آيات السورة قد تضمنت مثل هذه المقاطع ، وهى تتناسب مع عدد الكلمات تناسبًا طرديًا ، وهى فى جملتها لا تقل عن نصف عدد الكلمات التى وردت فى الآيات ، وذلك إذا أسسنا حكمنا وإحصاءنا على أحكام التلاوة كالمد والقصر ، والإدغام والإشمام وغيرها ، وإذا ما عددنا أيضًا الأحرف والضمائر المتصلة والمنفصلة كلمات ، ومثال ذلك أننا نعدّ الآية الأولى ﴿طه﴾ كلمتين ، وهى مكونة من مقطعين

---

(١) انظر تحليلنا لسينية البحترى فى كتاب علم الفصاحة ص ٢٥٣ .

مفتوحين متوسطين ، والآية الثانية تتألف من ثماني كلمات وتضم أربعة مقاطع مفتوحة ، ثلاثة منها فى الحشو ، وواحدة فى الفاصلة ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ إلى جانب مقطعين بهما صوت النون ، أحدهما متوسط مغلق والآخر قصير مفتوح . وفى الآية الثالثة خمس كلمات وهى تشمل مقطعين مفتوحين متوسطين ، أحدهما فى الحشو ، والآخر فى الفاصلة ، وتشمل الآية أربعة مقاطع لأشباه الصوائت ﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ ثلاثة منها متوسطة مغلقة ، وواحد قصير مفتوح .

أما الآية الرابعة ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى﴾ ففيها أربعة مقاطع مفتوحة ، ثلاثة فى الحشو ، والرابع فى الفاصلة ، وستة مقاطع لأشباه الصوائت ، وقد حول التنوين مقطع اللام المفتوح إلى مغلق ، وكذلك تحول المقطع المتوسط فى « على » إلى مغلق بسقوط الفتحة الطويلة كما فى قوله تعالى ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ، وقد حدث عكس ذلك فى تحويل مقطع الهاء المفتوح القصير إلى مقطع متوسط مفتوح ، وذلك بإشباع الضمة فى « له » فى الآية السادسة ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ . وهو ما حدث فى الآية السابعة أيضًا فى مقطع الهاء القصير الذى صار مقطعًا متوسطًا مفتوحًا « فإنه » فى الآية ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ .

وهكذا نرى أن آيات السورة قائمة على مقاطع مفتوحة مختومة بصوائت ، أو مقاطع تضم صوامت تشبه الصوائت ، وقد حدث ذلك فى أصغر آياتها وهى الآية الأولى ، وأطول آية فيها وهى الآية الأربعون التى تبلغ كلماتها ستًا وخمسين كلمة[1] وهى تضم ثمانية عشر مقطعًا مفتوحًا ، وسبعة عشر مقطعًا به صوت من أشباه الصوائت . وهى نسبة عالية تشير إلى التناسب الطردى الذى ذكرناه آنفًا ، ونؤكده .

وإذا تأملنا الآيات الأربع التى خلا حشوها من المقاطع المفتوحة ، فإننا نجد فيها ما يعوضها عن تلك المقاطع ، وهى خصائص تؤدى دورًا كبيرًا فى التلاؤم قد لا يؤديه وجود المقاطع المفتوحة بها ، ففى الآية رقم ٢٧ ﴿واحلل عقدة من لسانى﴾ أربعة مقاطع من أشباه الصوائت ، هى المقطع المتوسط المغلق المؤلف من اللامين فى ﴿ احلل﴾ والمقطع المتوسط المغلق الناتج عن التنوين فى ﴿عقدة﴾ ومقطع ﴿مِنْ﴾ والمقطع القصير

(١) هى قوله تعالى ﴿إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر منى يا موسى﴾

المفتوح فى لام ﴿لسانى﴾ وهى نسبة تردد عالية تفوق فى أثرها وجود مقطعين مفتوحين متوسطين فى الحشو .

أما الآيتان الثالثة والثلاثون ﴿كى نسبحك كثيرًا﴾ والرابعة والثلاثون ﴿ونذكرك كثيرًا﴾ فقد خلا حشوهما أيضًا من الصوائت الطويلة ، لكنهما تجمعان أصواتًا صامتة تتردد فى الآيتين ، فقد وردت المجموعة الصوتية ﴿كثيرًا﴾ فى ختام الآيتين ، كما تردد صوت الكاف ثلاث مرات فى كل آية ، وصوت النون مرتين كما يتقارب مخرج (الذال) فى ﴿نذكرك﴾ من مخرج السين فى ﴿نسبحك﴾ ومخرج الياء والراء . وهذه المجموعات الصوتية المتكررة فى الآيتين تحدث ترجيعًا صوتيًا عذبًا تستريح له الأذن ، ويقع فيها موقعًا حسنًا ، وهو تردد يوحى ويؤكد معنى ساميًا فى العبادة ، والتسبيح والذكر يؤكدان تلك الدلالة السامية .

أما الآية الواحدة والأربعون ﴿واصطنعتك لنفسى﴾ فهى تشبه فى حالتها الآية السابعة والعشرين ﴿واحلل عقدة من لسانى﴾ فقد تضمن حشوها ثلاثة مقاطع من أشباه الصوائت ولم يتضمن صوائت طويلة ، فقد جاء صوت النون بين صوتين ثقيلين هما الطاء المطبقة والعين الحلقية ، فخففت الثقل الذى قد ينشأ عن تجاورهما ، وقد حدث الأثر نفسه فى المقطعين الأولين من كلمة ﴿لنفسى﴾ وهما قد فصلا بين صوتى الكاف والفاء ، وهما احتكاكيان ، ومن ثمّ جاء صوت الصفير الحادث من الصاد والسين فى الآية – عذبًا حسن الوقع فى السمع .

وهكذا نرى أن خلو الحشو فى بعض الآيات من الصوائت الطويلة قد أفسح المكان لأصوات تؤدى دورًا جماليًا فى إيضاح الأصوات .

كما أن تردد الصوائت الطويلة فى حشو الآيات وفواصلها يصنع تلاؤمًا صوتيًا من نوع خاص ، وهو يشيع فى السورة تتابعا صوتيًا رائعًا ، تتلاحم النفوس معه من أكدارها العالقة ، ورسول الله ﷺ أولى الناس بهذا الصفاء ، وأحقهم بنسيان أذى قومه ، وقد حقق هذا التلاؤم وذلك التناغم الأثر المرجو منه .

ولا يقف التلاؤم الصوتى عند أنظمة مقطعية مخصوصة فى الآيات – بل يتخطاه إلى أنظمة لوحدات أكبر ومنها :

نسق تردد الكلمات :

نلحظ فى السورة الكريمة بعض الخصائص فى تردد الكلمات ، أما **عن تردد الأعلام** فلقد ذكر موسى وهارون وفرعون والسامرى وآدم ، وهو تكرار له أثره اللفظى

والمعنوى ، فقد ذكر موسى عليه السلام خمس عشرة مرّة فى السورة ، ثلاث مرات منها فى حشو الآيات ، والباقى فى الفواصل .

وقد تردد اسم آدم وهارون فى تسع آيات ، منها خمس لآدم ، وأربع لهارون ، وهما نبيان فاضلان .

وتردد اسم فرعون ، والسامرى ، وإبليس تسع مرات أيضًا ، خمس لفرعون ، وثلاث للسامرى ، ومرة واحدة لإبليس ، وهم من العصاة الأشرار ، وكأن الخير والشر متعادلان فى الوجود ، أما موسى فهو نبى ورسول من أولى العزم ، وهو من الرواسخ فى عالم الرسالات السماوية .

كما نلحظ أن موسى وآدم وهارون أسماء مبدوءة بمقطع متوسط مفتوح وأن مقاطع (موسى) وردت مقلوبة فى (هارون) ، فموسى مكون من مقطعين مفتوحين متوسطين ، الأول ينتهى بضمة طويلة ، والثانى بفتحة طويلة ، أما هارون فهو مبدوء بمقطع متوسط مفتوح بفتحة طويلة ، والثانى متوسط مفتوح بضمة طويلة ، والثالث مقطع قصير مفتوح هو مقطع النون .

ودلالة هذا الاشتراك – من وجهة نظرنا – فى اللفظ يشير إلى اشتراكهم فى النبوة والرسالة والفضل ، وأن رسالتيهما تشتركان فى الهدف ، وكل منهما يكمل الرسالة الأخرى . ومما يرجح لدينا تلك الدلالات اشتراك فرعون وإبليس فى مقاطع تتشابه إلى حد كبير ، فكل منهما يتكون من ثلاثة مقاطع ، الأول فى كل منهما متوسط مغلق (c.v.c) والثانى فى (فرعون) متوسط مغلق ، وفى إبليس متوسط مفتوح {c.v.v.} أما الثالث فيهما فهو قصير مفتوح {C.v} فهما يشتركان فى اللفظ ، ويشتركان أيضًا فى مسلك الشر ، ومحاربة الأخيار ، وكلاهما أبى طاعة الله واستكبر ، وكان من الكافرين .

ولو تأملنا مقاطع لفظة (شيطان) فإننا نجدها مقاطع كلمة (إبليس) ، وهما علمان يطلقان على حامل الغواية والأذى للصالحين ، واللفظتان مولفتان من ثلاثة مقاطع ، الأول متوسط مغلق ، والثانى متوسط مفتوح ، والثالث قصير مفتوح .

وهذه ظاهرة صوتية معروفة ، وقد عالجناها فى كتابنا علم الفصاحة العربية[1] .

---

(١) انظر ما كتبناه عن علاقة الأصوات والألفاظ بمعانيها ص ٣٠٢ وما بعدها .

أما عن الكلمات الأخرىَ من غير الأعلام فإننا نلحظ بعد التأمل فيها مجموعة من الخصائص التى تستوجب التوقف عندها والتأمل فيها ، ومعرفة غاياتها ، ومنها :

١ – أنها **ترد مرتين أو ثلاث مرات على الأكثر** فى السورة وعدد الكلمات التى تكررت فى السورة إحدى عشرة كلمة ، ثلاث منها وردت ثلاث مرات هى ﴿أخرى﴾ و ﴿يخشى﴾ و ﴿هدى ﴾ وثمانى الكلمات الأخريات وردت مرتين فقط فى السورة هى ﴿ذكرى﴾ و ﴿ذكرًا﴾ التى وردت فى فاصلة الآيتين (٩٩ – ١١٣) و ﴿هُدَى﴾ و ﴿اهتدى﴾ و ﴿يشقى﴾ و ﴿طغى﴾ و ﴿نهى﴾ و ﴿نسفا﴾ .

٢ – كل الكلمات التى ترددت فى السورة تنتهى جميعها بمقطع متوسط مفتوح (c.v.v) هو المقطع المنتهى بالفتحة الطويلة (A A) وهو أمر يجرى ويتناسب مع الإيقاع العام للسورة بل ان تكرار الألفاظ بعينها بهذه الكيفية يعنى تكرار مجموعة صوتية تصنع ترجيعا مستساغًا عذبا فى الأسماع .

٣ – كما يلحظ أن عشر كلمات من إحدى عشرة تتكون من مقطعين فقط ولا تختلف إلا فى المقطع الأول فست منها مبدوءة بمقطع متوسط مغلق (c.v.c) وهى ﴿أخرى﴾ و ﴿ذكرى﴾ و ﴿ذِكرا﴾ و ﴿يخشى﴾ و ﴿يشقى﴾ و ﴿نسفًا﴾ وأربع منها تبدأ بمقطع قصير مفتوح (c.v.) هى ﴿هَدَى ﴾ و ﴿هُدِى﴾ و ﴿طغى﴾ و ﴿نهى﴾ فالكلمات الست تأتى على مقطعين هما (c.v.v.) + (c.v.c) والكلمات الأربع تأتى على (c.v.v.) + (c.v.)

أما الكلمة الحادية عشرة فهى مؤلفة من ثلاثة مقاطع ، وهى كلمة ﴿اهتدى﴾ التى وردت مرتين والمقطع الأول منها متوسط مغلق ، والثانى قصير مفتوح ، والثالث متوسط مفتوح ، فالكلمة تتكون من (c.v.c + c.v + c.v.v.)

٤ – ومما نلحظ أيضًا من تردد ألفاظ بعينها فى السورة أن الألفاظ التى ترددت لم تتجاور تجاورًا يؤدى للثقل أو التنافر ، ومثال ذلك كلمة ﴿أخرى﴾ التى وردت فى الآيات (١٨) و (٣٧) و (٥٥) ، وكلمة ﴿ذكرى﴾ التى جاءت فى الآيتين (١٤) و (٤٢) وكلمة ﴿يخشى﴾ التى وردت فى الآيات (٣) و (٤٤) و (٧٧) و ﴿يشقى﴾ فى الآيتين (٢) و (١٢٣) و ﴿طغى﴾ فى الآيتين (٢٤) و (٤٣) ، و ﴿انهى﴾ فى (٥٤) و (١٢٨) ، وهكذا ورودها لم يأت متجاورا ، بل جاءت منثورة متباعدة لا تشعر النفس معها بملل أو ثقل فى نطقها .

وبقى أن نتوقف عند نقطة أخيرة من ظاهرة التردد الصوتى ، ونعنى بها **تردد بعض الجمل بلفظها** .

لقد ترددت آيتان بلفظهما فى السورة ، والأولى منهما قد اختلف فيها الخطاب من المفرد إلى المثنى ، فبعد أن درب الله نبيه موسى على آياته الدالات على صدق رسالته أمره ربه أن يتوجه إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله وحده بعد طغيانه قال تعالى : ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾[١] وقد ورد لفظ هذه الآية بعد ذلك مع توجيه الخطاب إلى المثنى ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾[٢] وهو تكرار يؤكد أن الرسالة الموسوية قد حان وقتها ، ولا يجب أن تتأخر عن ذلك الزمان ، بعد أن أفسد هذا الطاغية فى الأرض وأضل قومه وما هداهم . ولا تختلف الآيتان إلا فى الألف التى لحقت فعل الأمر ﴿اذهب﴾ وأصبح الفعل ثلاثة مقاطع بعد أن كان مقطعين عند إسناده إلى المفرد ، وهو تغيير قليل لا تكاد الأذن تشعر به . وتكرار هذه المجموعة الصوتية له أثره فى الإيقاع الصوتى الذى لا يبرز إلاّ به .

أما الآية الثانية التى تكررت بلفظها دون تغيير فهى قوله تعالى : ﴿إن فى ذلك لآيات لأولى النُّهى﴾ ولم تختلف الآيتان فى صوت واحد ، وهما ختام آيتين ، وليستا آيتين منفصلتين ، وهما تردان فى موقف يستوجب التذكير بفضل أصحاب العقول المفكرة ، التى تقدر الأمور حق تقديرها ، وأصحابها أقرب المخلوقين إلى الله سبحانه .

وقد توهب هذه العقول الراجحة إلى من لا يحسنون توظيفها فلا يوجهونها إلى الخير ، فإما يوقفونها عن الإدراك الصحيح ، وإما يوجهونها إلى الشرور والآثام .

فتكرار الآيات بلفظها يؤدى دورًا دلاليًا وجمانيًا فى وقت واحد .

---

(١) سورة طه آية ٢٤ .

(٢) سورة طه آية ٤٣ .